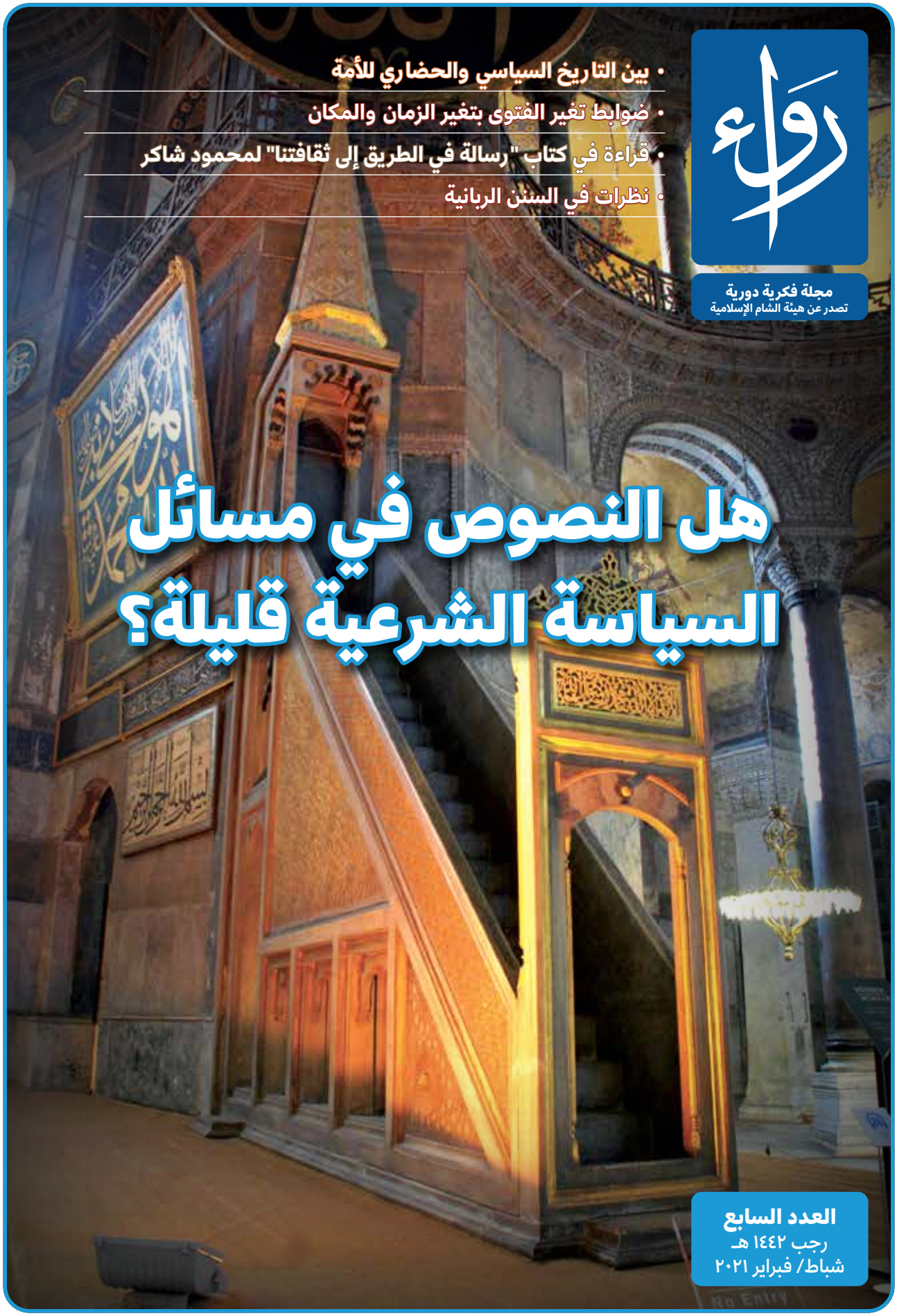

رواء

مجلة فكرية دورية
تصدر عن هيئة الشام الإسلامية

- بين التاريخ السياسي والحضاري للأمة
- ضوابط تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان
- قراءة في كتاب "رسالة في الطريق إلى ثقافتنا" لمحمود شاكر
- نظرات في السنن الربانية

هل النصوص في مسائل السياسة الشرعية قليلة؟

العدد السابع
رجب ١٤٤٢ هـ
شباط/ فبراير ٢٠٢١

هذه المجلة

(رَواء) مجلة فكرية تُعنى بالإنتاج العلمي والدعوي والتربوي والاجتماعي، وتسعى أن تكون منارة في أرض الشام المباركة، تُشع بالعلم والمعرفة من خلال المجالات الآتية:

- الأصالة والانطلاق من ثوابت الدين والأمة، وتعزيزها في النفوس.
- بث القيم الحضارية وروح النهضة في المجتمع.
- تعزيز جانب الائتلاف وجمع الكلمة بين صفوف الأمة.
- إثراء الساحة بمقالات متميزة تلامس الواقع، في قضايا المنهج والتجديد والإصلاح.

ترحب مجلة رَواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

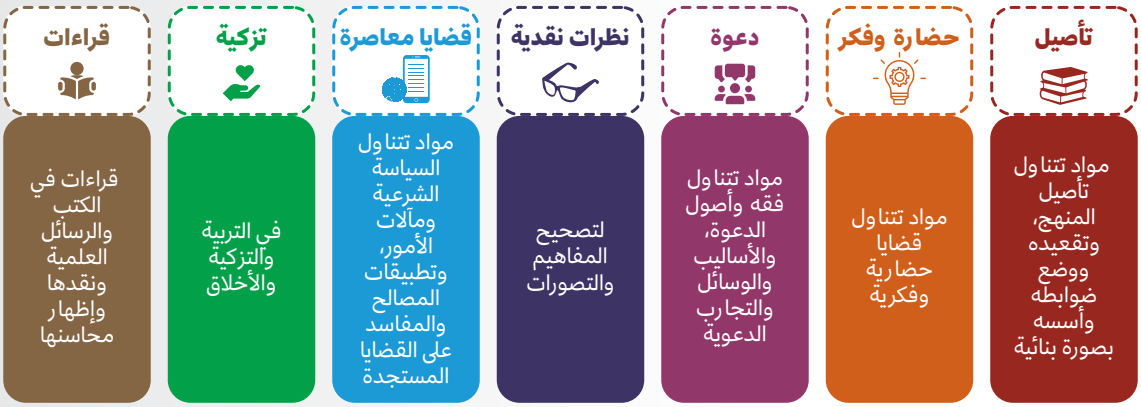

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

سياسات النشر في المجلة

١. تنشر المجلة المقالات التي تثري محاورها الأساسية.
٢. تلتزم المجلة سياسة التحرير الهادئة، وتجنب النقد الجارح وما يثير النزاعات والفتن.
٣. لا تنشر المجلة ما يجعلها طرفاً في صراعات دولية أو إقليمية أو محلية.
٤. يُحكّم المقالات الواردة للمجلة متخصصون في موضوعاتها.
٥. أن يكون البحث أصيلاً ومخصصاً للمجلة، ولم يُنشر في أيّ وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، ولم يقدَّم إلى أيّ جهة أخرى للنشر.
٦. تنشر المقالات بالأسماء الصحيحة والصريحة لأصحابها.
٧. تلتزم المجلة بإخبار الكاتب بقرارها من النشر أو عدمه خلال شهر من استلام المقال.

فهرس الموضوعات

موجة الشك والتشكيك.. ما الموقف؟ ٢
الافتتاحية

بين التاريخ السياسي والحضاري للأمة ٨
د.محمد العبدة

ضوابط تغيّر الفتوى بتغيّر الزمان والمكان ١٥
د.محمد بلال غنام

غربة الروح ٢٣
د.أسامة الصالح

هل النصوص في مسائل السياسة الشرعية قليلة؟ ٢٦
عدة باحثين

ظاهرة علماء السلطان في الميزان ٣٣
د. ياسين محمد علوش

أسباب الخلاف المذموم «نظرة منهجية» ٤١
أ. عاصم الحايك

برامج الأطفال الكرتونية وأثرها في تربية الطفل وتوجيه سلوكه ٤٧
أ. أسامة ياسين صباغ

نظرات في السنن الربانية ٥٤
د.حسان نقرش

قراءة في كتاب: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا لمحمود شاكر ٦٢
أ.عبد القادر بن عبد الكريم العثمان

بأقلام القراء ٧٠

فنادى في الظلمات ٧٢
د.خير الله طالب

رواء

مجلة رَواء
دورية فكرية تصدر مؤقتًا
كل شهرين

هيئة الشام الإسلامية

أسرة التحرير

رئيس التحرير
د. عماد الدين خيتي

مدير التحرير
أ. ياسر المقداد

سكرتير التحرير
أ. محمود درمش

تكتب جميع المراسلات باسم رئيس التحرير، وترسل إلى:
rawaa@islamicsham.org

rawaamagazine

www.rawaamagazine.com
www.islamicsham.org

كلمة التحرير

موجة الشك والتشكيك ما الموقف منها؟

ما إن تراجع الدور الحضاري للمسلمين في العالم حتى طفقت البشرية تتخبّط من تيهٍ إلى تيه، والذين تصدّروا قيادة العالم كانوا بعيدين كلّ البعد عن هذه الحضارة وأسسها المتينة التي رسّختها العقيدة والقيم الإسلامية وأدّت إلى تقدّم الإنسان ورفعةِ المسلمين إلى ذروة المجد لقرونٍ طويلة، فأضحت البشرية بيد هؤلاء القادة مسرحًا للدمى، وسوقًا للبيع والشراء، وحقلاً للتجارب في مختلف المناحي العلمية والفكرية والدينية، بعيدًا عن نور الوحي وهداية السماء.

بداية البلاء:

بدأت المعاناة مع طغيان الثورة الصناعية في أوروبا، حيث رافقتها ثورة على الدين النصراني الذي تحوَّل إلى عقبة أمام التقدّم والتحضّر والتعلّم منذ أن فقد حقيقته السماوية وتعرّض للتحريف على مرّ العصور، فأصبح غير قادر على تقديم الإجابات الشافية التي يحتاجها البشر، بل أصبح مناقضًا للعقل والمنطق، محاربًا للعلم، مُزريًا بفطرة الإنسان ومكانته، وصار أداةً لتسلّط رجال الدين سياسيًا واقتصاديًا ودينيًا، واحتكر رجال الدين «الكتابَ المقدّس» وحظروا تعلّمه وتفسيره إلا عن طريقهم، وحاربوا العلماء واعتبروهم هراطقة لمجرّد مخالفتهم للتصوّرات الكَنَسيّة، إضافة للكثير من الممارسات التي فرّغت الدين من مضمونه.

وبدلاً من سير الثورة في طريق تصحيح انحراف الكنيسة وتنقية الدين النصراني من التصوّرات التي دخلت عليه، والشوائب التي أفسدته؛ عمدت النُخب الثقافية والسياسية إلى الفصل التامِّ بين الحياة والدين بجميع تعاليمه الأصلية والمحرّفة، وسلطته المعنوية والمادية المتمثّلة في ممارسات القساوسة والرهبان.

الإلحاد والكفر بالدين:

كانت النتيجة: ثورةً على الدين، ونبذه كلّيًا من الحياة العامة، وحصرَ ما بقي منه في طقوس شكليّة غير مُلزمة، والنظر بعين الشكّ والريبة في كلّ ما هو تقليدي أو موروث، واستئناف رحلة المعرفة دون هداية أو إطار مرجعي، سوى الشرط المسبق بتنحية الدين جانبًا، وربطه بالتأخّر والتخلّف،

واعتباره السبب الرئيس للظلام الذي كانت تعيشه أوروبا القرون الوسطى!!

ولك بعد ذلك أن تجول بفكرك وتتخيّل: أين يمكن أن تصل البشرية وهي بعيدة عن الدين؟ وكيف ستكون الحياة وهي تفقد روحها واتصالها بنور الوحي وجمال القيم وسموّ الإيمان؟

> **بدلاً من تصحيح الثورة الصناعية الأوربية لانحراف الكنيسة؛ عمدت النُخب الثقافية والسياسية إلى الفصل التامِّ بين الحياة والدين بجميع تعاليمه الأصلية والمحرّفة، وسلطته المعنوية والمادية المتمثّلة في ممارسات القساوسة والرهبان.**

سلسلة الشكّ:

فُتح باب الشكّ على مصراعيه، وابتدأ بالشكّ بصحّة الأديان جميعها وتشريعاتها وكتبها، ثم وصل إلى الشكّ في وجود الخالق ذاته، وتتابع بعدها العلماء على وضع تفسيرات مادية للكون ومظاهر الحياة، سواء المشاهَدَة منها أو الموغلة في الغيب والزمن .. فظهرت مدارسُ فكرية وفلسفية تبنّت نظرياتٍ حول بداية الكون وخلق الإنسان مليئةً بأغاليطَ يأباها العقل السليم، كنظرية النشوء والتطوّر وأصل الأنواع، ونظريات مشابهةً في مختلف العلوم كعلم الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتربية وغيرها، وكلّها تشترك في أنّها تعتمد العقل والتجربة مصدرًا وحيدًا ومقدّسًا للمعرفة والعلم، مع تنحية فكرة الإله وجميع ما يتعلّق به جانبًا، وأصبح التصديق بهذه النظريات التي تصادم العقل وتحارب المنطق ولا تملك من الأدلّة ما يرقى إلى ما يمكن تسميته دليلاً؛ من المسلّمات لدى كثير من البشر!

وجهات نظر!

وفي ظلّ هيمنة هذا الفكر على المؤسّسات العلمية والفكرية والإعلامية في الدول المتغلّبة على مقاليد القوّة في العالم: فَقَدَت العلومُ الأساسَ المتين الذي كانت تنطلق منه وهو التسليم بالبدهية الكبرى المتمثّلة في وجود الخالق العزيز القوي المدبّر للأمور، والعبودية له سبحانه في كل مناحي الحياة، وضربت الفوضى أطنابها في كلّ مفاصل المعرفة، وأضحت جميعُ الحقائق والـمُثُل والقيم -ومنها الدين وحقائقه- وجهات نظر تحتملُ الصواب والخطأ، وصار الإلحاد حقًا معرفيًا؛ فاهتزت الثوابت وضعف اليقين إلا بعقل الإنسان و»حريته» في البحث عن المعرفة!

وظهرت المدارس الأدبية التي حملت طابع (الحداثة) بما تحمله من غموض ورمزية وإيحاءات غير مفهومة، فكانت عاملاً إضافيًّا من عوامل تمييع الثقافة والمعرفة، وإضعاف العلاقة بالماضي بكل ما فيه، من خلال كسر إطار اللغة التي هي وعاء العلوم.

أما النظريات الاقتصادية التي شرَّقت العالم وغرَّبته، فقد كان لها وقع سيِّء على البشر؛ إمّا بحرمانه من حقوقه الأساسية في التملّك، أو بترك الغني يسحق الفقير دون رادع ولا وازع، وهذه النظريات توَّجت هذه الفوضى المعرفية إلى جانب نظريات التفوّق العنصري التي تبنّتها نُظُم سياسية قويّة وصاعدة، وقسّمت البشر إلى طبقات بحسب العرق واللون والانتماء؛ فقادت العالم إلى دمار شامل في حربين عالميتين متتاليتين لم تعهد البشرية مثلَهما قبل ذلك، وألقت بظلالها حتى اليوم على الواقع السياسي والاقتصادي والثقافي للعالم أجمع.

اتساع (حرية التعبير) لحماية المتناقضات:

هذه الحالة الحائرة المتمثّلة في تفكيك المسلّمات والشكّ في الثوابت، وتقديمها إلى جانب النظريات غير الثابتة أو المتعارضة على طبق المساواة، تنتج بطبيعة الحال تصادمًا مجتمعيًّا سببه بقاء فئات تتبنّى ما تمليه عليها فطرتها الأصلية وإيمانها الموروث وإن كان فيه أخطاء، في مقابل تبنّي فئات جديدة للنظريات والصيحات التي تظهر حينًا بعد حين. كما أنّها تُلقي بظلالها على النُظُم السياسية الغربية، التي كانت بحاجة لتحقيق قدر من الاستقرار والتجانس في بلدانها لتتماسك وتستمر قوتها، فاتسعت فيها دوائر الحريات لتستوعب التيارات المتناقضة التي وصلت إلى حدود غير مسبوقة، مع اتفاقهم على الانطلاق من علمانية العلم والفكر والدولة لحماية هذه المتناقضات.

ومع ظهور آثار سيئة وكوارث علمية واجتماعية واقتصادية لهذه التطبيقات، عمدت الدول والأنظمة إلى تقنين العديد من هذه الممارسات، ووضع ضوابط عمرية أو اجتماعية لها، وصار من

ينكر هذه التناقضات يُواجه بما بات يُعرف بحرية التعبير، وبأنّ مِنْ حَقِّ مَنْ شاء اعتناقُ ما شاء من المعتقدات وارتكاب ما شاء من الأفعال، إلى الدرجة التي يجد فيها المسيء المتجاوز لحدوده حريةً أكثر من المحافظ المتعقّل، ومن أبرز الأمثلة على هذا التناقض القيمي ما حدث ويحدث في فرنسا من الإساءة للأنبياء، في الوقت الذي تُجرَّم فيه الإساءة لأشخاص الحكومة!!

وهكذا ضاق القدْر المعرفي والقِيَمي المشترك الذي يمكن للجميع الرجوع إليه والصدور عنه، وفي الوقت ذاته تزعزعت مسلّمات كبرى كانت في نطاق العقائد والقيم في وقت مضى لكنها اليوم صارت وجهات نظر تحتمل الصواب والخطأ، وصار يطرق سمعك كثيرًا البحث عن المشتركات مثل الإنسانية والقيم الإنسانية التي ليس لها تفسير مفهوم ولا كتاب معلوم، فصار الشكّ والتشكيك سمة هذا العصر، فما الذي يمكن الوثوق به ما دامت الأمور وجهات نظر؟!!

أصبح (التجديد) أمرًا محمودًا في ذاته ومطلوبًا، والثبات على القديم مرغوبًا عنه ومذمومًا، لا لشيء سوى أنّ هذا جديد وهذا قديم، فانطلقت الأفكار والممارسات من عُقُلها، غير محكومة بأيّ قيد أو ضابط، سوى مبدأ البحث (الحرّ) عن الجديد والغريب

تفاقم المشكلة:

تمثّلت المصيبة الكُبرى في عدم وجود إطار مستقرّ لهذه الأفكار، فهي قابلة للتغير باستمرار، فما كان قبيحًا منبوذًا بالأمس من الفواحش كالشذوذ والمخدرات، أصبح اليوم مقبولاً مُرحَّبًا به، بل هناك محاولات لجعله مشروعًا في القوانين والدساتير؛ مما يحوّله إلى أساس تبنى عليه المعرفة والسلوك.

وأصبح التغيير و(التجديد) أمرًا محمودًا في ذاته ومطلوبًا وسمةً على التقدّم والتطوّر، والثبات على القديم مرغوبًا عنه ومذمومًا في ذاته وسمةً على التخلّف والرجعية، لا لشيء سوى أنّ هذا جديد وهذا قديم، فانطلقت الأفكار والممارسات من عُقُلها، غير محكومة بأيّ قيد أو ضابط، سوى مبدأ البحث (الحرّ) عن الجديد والغريب.

وهكذا تتسع الفجوة ويزداد الظلام قتامة، ولا تصل البشرية إلى الإجابات الحاسمة ولا الحلول الجذرية، وتزداد الانحرافات تطرّفًا وابتعادًا عن الاعتدال والفطرة السوية، في نتيجة طبيعية لهذا التقدّم المزعوم من جهة، والهروب من إشكالات الواقع، واستمرار البحث عن إجابات من جهة أخرى، في ظلّ الغفلة والتغافل عن الإجابات النهائية والجذرية التي قدّمها الوحي المنزّل.

لم يعد البحث عن (الجديد) قاصرًا على الدين والعلم، بل انتقل لجميع المجالات، فشمل النظر للعادات والتقاليد والأعراف، وأصبح التسابق للخروج عنها وخرقها مطلبًا للشباب في حدّ ذاته، وعنوانًا للإبداع!

ومن نتائج وآثار ذلك في عالمنا اليوم:

- تقديس العقل والعلم، والنظر للعلم التجريبي على أنّه قادر على الإحاطة بكل الحقائق الكونية، وأنّ البشر لم يعودوا في حاجة إلى أيّ مصدر آخر للمعرفة، وظهور النزعة «العلموية» التي تعتقد بأنّ «العلم يكفي الآن وحده لمعالجة جميع شؤون الإنسان».
- استبعاد الدين من بَلْوَرة الأفكار والحاكمية عليها، في نتيجة منطقية للنقطة السابقة، ومن أبرز نتائج هذا التوجّه: خواء الحضارة الغربية من المعنى، وتحوّلها إلى مادّة مجرّدة، وجسد بلا روح.
- البحث دومًا عن (الجديد)، والنظر للقديم باستهانة وازدراء مهما كانت قوّته وصحّته، وإحاطة الجديد بالتقدير مهما كان، ولم يعد الأمر قاصرًا على الدين والعلم، بل انتقل لجميع المجالات، فشمل النظر للعادات والتقاليد والأعراف، وأصبح التسابق للخروج عنها وخرقها مطلبًا للشباب في حدّ ذاته، وعنوانًا للإبداع!
- اضطراب مقاييس الحكم على الأمور، فلم يعد النظر للصواب والخطأ من منظور الشرع أو العادات والأعراف، بل لم يعد ثابتًا؛ فما كان خطأً بالأمس يمكن أن يتحوّل لصواب كالشذوذ والإجهاض وغيرها. ولم يعد مقياس معرفة الصواب والخطأ بالرجوع لمنظومة قيمية أو معرفية معينة، بل بالغلبة والشهرة،

سلسلة الشك

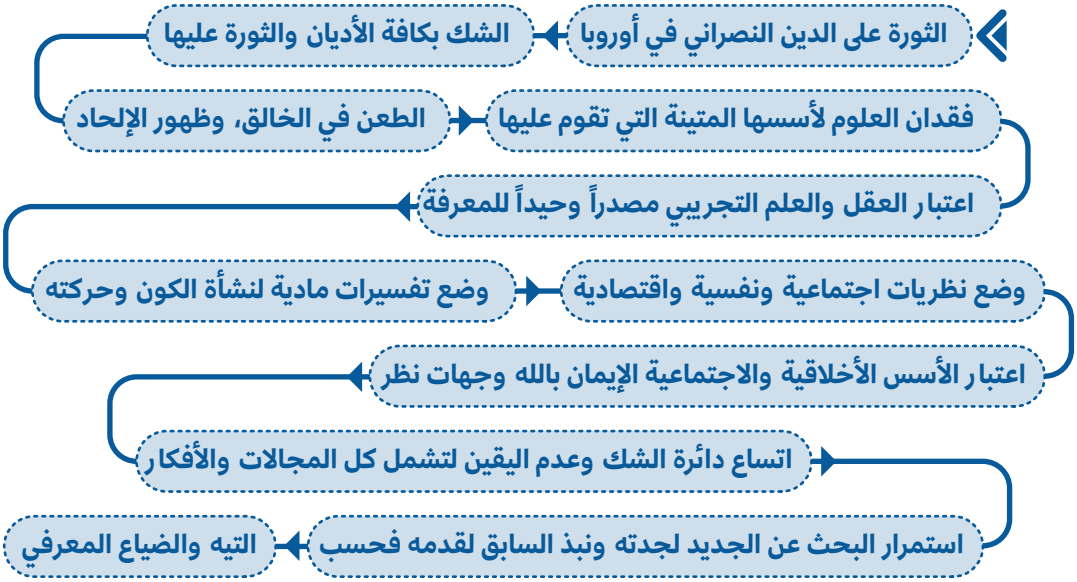

ولم يعد مقياس الجمال كما كان، فصار التشويه بالوشوم وتقطيع الأعضاء بكلّ طريقة مقزّزة معيارًا للجمال، وصار الإغراب في اللبس والمظهر والسلوك دليلاً على التقدم والحضارة، وهكذا!

تسلّلت نظرة الشكّ لكافّة مناحي الحياة، حتى إلى المسلّمات العلمية، مع إلباسها اللبوس الشرعي في بعض الأحيان للإقناع بها. إلى جانب الشكّ في النظم الصحية والأدوية والعلاجات واللقاحات وغيرها، والتحذير الشديد منها

آثار الموجة في العالم الإسلامي:

للعديد من العوامل والظروف: وصلت هذه الأفكار إلى العالم الإسلامي، وتقمّصها –بدايةً– فريقٌ من المؤثّرين على مستوى القرار السياسي والبحث العلمي، فظهر لها أصداء وتطبيقات، من أبرزها:

- إنكار وجود الخالق والإلحاد التامّ، أو التشكيك والحيرة فيما يعرف باللاأدرية، وسواء كان ذلك بهدف البحث عن الحقيقة، أو بدافع التخلّص من تبعات الإيمان بالله تعالى، والولوغ في المحرّمات دون وازع أو رادع، فالنتيجة متقاربة.
- التشكيك في التراث الديني، والعمل على إعادة النظر في المسلّمات الشرعية بدءًا من النصوص، والعمل على تفسيرها وفقًا للمناهج الفكرية المعاصرة، فظهرت أفكار إعادة قراءة النصّ وتأويله، والتفسيرات الشاذّة لأحكام الدين.
- النظر للتاريخ الإسلامي وتراثه نظرة ازدراء واحتقار واتهام، ومحاولة التخلّص من آثاره ومنتجاته باسم (التجديد) والعصرنة والحداثة.
- الاستخفاف بجهود العلماء السابقين واتهام أشخاصهم ومناهجهم، وصولاً إلى الخروج عن تعاليمهم وعلومهم. بدءًا بعلماء الشريعة، فهم –مهما علا شأنهم كالأئمة المتبوعين– رجالٌ ونحن رجال!! ومرورًا بعلماء الحديث كالبخاري ومسلم والطعن في جهودهم والتشغيب عليهم ممَنْ ليس له نصيب من العلم، ووصولاً للصحابة والطعن واللمز فيهم، تارةً بنكهة سياسية، وتارةً بنكهة حديثية، وانتهاءً بالحديث النبوي والقرآن الكريم ونزع القدسية عنهما، وإلباسهما لباس التاريخية والبشرية.

مع شيوع وسائل التواصل الاجتماعي وانتشار التفاهة: ازدادت صعوبة تمييز الغثّ من السمين على قطاعات هائلة من الشباب، وفُتح الباب على ما يعرف بظاهرة إسقاط الرموز، فلم تعد الجماهير تثق بآراء المتخصصين والخبراء؛ فالمسألة في نظرهم لا تعدو كونها «وجهة نظر»!

- اضطراب اليقين بالمسلّمات العقلية والعلمية والكونية، وتسلّل نظرة الشكّ والتشكيك لكافّة مناحي الحياة، ولعل من آخرها الشكّ في علوم الفلك التي توصّلت إليها البشرية وثبتت بعض مسلّماتها عبر القرون وأكّدتها العلوم الحديثة ككروية الأرض ونحوها، مع إلباسها اللبوس الشرعي في بعض الأحيان للإقناع بها. إلى جانب الشكّ في النظم الصحية والأدوية والعلاجات واللقاحات وغيرها، والتحذير الشديد منها.
- ذيوع موجات نظريات المؤامرة التي تتغذّى على العديد من التصرّفات السيئة والمشبوهة للحكومات والمنظّمات، وظهور الفساد فيها بسبب خضوعِها لجماعات الضغط وأصحاب النفوذ والتأثير وجشعِها المادي، وتضخيم وسائل الإعلام لبعض القضايا. رافق ذلك: قلّة وعي الناس بكيفية تلقّي الأخبار وتمحيصها وردّها إلى مصادرها، والتوقّف عن نشر ما ليس له مصدر موثوق؛ فازدادت نظرة الشكّ في كلّ ما يحدث، وتفسير ما يحدث حولنا على أنّه مؤامرة، واعتقاد أنّ أصابع خفية تقف خلف كلّ حدث، مهما كان نوعه سياسيًا أو اقتصاديًا أو دينيًا، إلى درجة قيام البعض بنسبة بعض الكوارث الطبيعية إلى تدبير البشر!!
- حلول الخرافات والأوهام محلّ العلم اليقيني في العديد من الأمور، فاضطربت مصادر المعرفة ومقاييس التفريق بين الصحيح والمزيف، وراجت سوق المعلومات المغلوطة.
- التفلّت من العادات والتقاليد، والضوابط المجتمعية باسم التحرّر والخروج من عباءة التقليد وتحقيق الذات و(الإبداع).

تشويه وانتقائية في المرجعيات والرموز:

أسهم في تحقيق ذلك كلّه: الانتقائية في تصدير الرموز والمرجعيات، حتى أصبحت سمة سائدة لدى الكثير من الأنظمة والمؤسسات الدولية والمحافل الثقافية والعلمية، وعلى نطاق الجوائز والمسابقات، والمنح الدراسية وكراسي البحث، ووسائل الإعلام، وتصدير التافهين والمشبوهين من حملة الأفكار الشاذة والمنحرفة، وتقديمهم في ثوب العلماء الذين يُصدر عن قولهم وتُتبع مذاهبهم، ومواجهة العلم بالترّهات والتفاهات وإلباسها لبوس العلم، حتى صارت المناصب والجوائز، ومستوى الشهرة وكثرة المتابعين معيارًا من معايير الاتباع عند الكثير من الناس، حتى لو كانت شهرة جوفاء!!

ومع شيوع وسائل التواصل الاجتماعي وانتشار التفاهة: ازدادت صعوبة تمييز الغثّ من السمين على قطاعات هائلة من الشباب غير المتسلّح بسلاح العلم وأدوات التمييز، وفُتح الباب على مصراعيه مع ما يعرف بظاهرة إسقاط الرموز، فلم تعد الجماهير تثق بآراء المتخصصين والخبراء؛ فالمسألة في نظرهم لا تعدو كونها «وجهة نظر»!

وهذا كلّه يأتي في فترة ضعف وتفرّق للمسلمين، وتفوّق أعدائهم في المجالات الحيوية المهمة، وتحكّمهم بمقاليد القوّة والتأثير، الأمر الذي جعل ثقافة الغالب تفعل فعلها في المغلوبين بمختلف شرائحهم.

المنهج الصحيح لمواجهة فقدان المصداقية هو النقد العلمي المبني على مصادر حقيقية وأدوات متماسكة تميز الحقّ من الباطل، وترصد مواطن الخلل، ثم تضع الحلول الوقائية والعلاجية للتعامل مع هذه النطاقات المتبقّية

نعم للنقد ولا للتشكيك:

لا يخفى أنّ حالة الشكّ وفقدان الثقة المعرفية تثير الخوف والهلع لدى البعض، لأنّ الشكّ لا ساحل له، ولا يوصِل إلى نتيجة متماسكة، وله طبيعة متسلسلة تثير المزيد من المخاوف من أمور غامضة لا يستطيع الكثيرون مواجهتها، وهذه بيئة خصبة للشيطان ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾[البقرة: ٢٦٨] ﴿ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾[آل عمران: ١٧٥].

ومع الإقرار بأنّ العديد من الأمور في عالمنا اليوم تثير الريبة بالفعل، وبأنّ مصداقية العديد من المنظّمات والهيئات الدولية والحكومات محلّ نظر وفحص، لكنّ المنهج الصحيح في مواجهة ذلك هو النقد العلمي المبني على مصادر حقيقية للمعرفة، وأسس ثابتة للعلم، وأدوات متماسكة للبحث والاختبار التي تميز الحقّ من الباطل، وترصد مواطن الخلل، ثم تضع الحلول الوقائية والعلاجية للتعامل مع هذه النطاقات المتبقّية.

ملامح الوقاية والعلاج:

لم تعد مسألة الشكّ تقتصر على جيل من الأجيال، أو فئة من الناس، أو شعب من الشعوب، لذا فإنّ التصدّي لها على درجة كبيرة من الأهمية، ويمكن أن يتمثّل العلاج والوقاية في النقاط التالية:

- تعلّم كيفية ضبط مصادر التلقّي، وكيفية الاستدلال وأصوله.
- معرفة كيفية التعامل مع المعلومات ومصادر المعرفة.
- التوثُّق من مصادر المعلومات وعدم نشر المعلومات التي ليس لها مصدر موثوق.
- الاهتمام بالعقل وصيانته في ضوء التعاليم الشرعية.
- تنمية الحسّ النقدي.
- تنظيم وتعليم التفكير.
- إعمال العقل والمنطق والتفكّر والتدبّر وعدم الانجراف خلف المخاوف والتّرهات.
- التحصّن بالعلم حتى لا نكون فرائس للجهل والشكوك التي لا ساحل لها.
- الثقة بأهل العلم الموثوقين من كلّ اختصاص، ومعرفة كيفية الاستفادة منهم والتعامل مع أخطائهم.
- توطين النفس على مواجهة المخاوف وعدم الاستسلام لها، والإيمان بالقدر وبأنّه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.
- العمل على بذل الممكن من الأسباب، والتوكّل على الله بعد ذلك، والاطمئنان إلى أنّ الله لا يحاسبنا على أكثر مِن وُسعنا.

والله تعالى أعلم.

حضارة وفكر

بين التاريخ السياسي والحضاري للأمة

د.محمد العبدة (*)

ليس من الإنصاف الاقتصار في قراءة تاريخ الأمة على جانبه السياسي دون الحضاري، أو المقارنة الظالمة بين أفضل ما وصل إليه الغرب اليوم وبين أسوأ ما اعترى تاريخ الأمة من حوادث، فضلًا عن التركيز على المغالطات الخطيرة وإغفال الصفحات المضيئة في الجانب السياسي والحضاري من تاريخ الأمّة على حد سواء، مما يبرز الحاجة إلى قراءة موضوعية منصفة لتاريخ الأمة من كافة جوانبه.

المتابع لما يجري على الساحة الثقافية في هذه الأيام سيلاحظ أنه ثمة حملة على التاريخ الإسلامي، حملة لا تخطئها العين، فيها ازدراء للماضي وتهجم على الدول الإسلامية التي جاءت بعد عصر الخلفاء الراشدين، بل قد تطال الخلافة الراشدة أحيانًا. حملة توحي للقارئ أو المستمع أن تاريخ المسلمين كله استبداد وظلم وقتال وفُرقة، تُبث تحت ستار: الموضوعية والحداثة والمعاصرة، أو تحت ستار التحقيق العلمي وعدم تقديس الأشخاص.

وإذا كان بعض من يتكلم بهذا الشأن له أغراض سيئة، فإن البعض يقوم بهذه الحملة من باب (التَّظرُّف) ليُشعر الآخرين أنه من الطبقة المثقفة التي لا تقدِّس الماضي، وأن كل شيء عنده خاضع للنقد حتى الأمور المسلَّمة والمتفق عليها.

ولو أن هؤلاء النَّقَدَة يبنون أمورهم على أساس من المعرفة المتخصصة والنقد السليم لكان الأمر سهلًا، وقُبل حوارهم ومناقشتهم، لكنه التطرُّف في النقد الذي لا يتوقف عند نقد الظالمين الفاسدين، بل فيه نسف واغتيال للتاريخ كله، ومن العجيب أن يتنبَّه مؤرخٌ غربي لهذه النظرة الخاطئة عند بعض الناس، يقول: «هناك نظريات خاطئة صورت التاريخ الإسلامي على أنه سلسلة محكمة من الحكام الطغاة»(١).

والعجيب أيضًا أننا نجد أن الأمم الحية كأمم الغرب اليوم مِن أحرص الناس على إعادة تاريخهم وذكر أبطالهم والكبار من أدبائهم وعلمائهم؛ راجعَتْ أوروبا تاريخها لتستفيد منه، فدرَست تاريخ الرومان واليونان، ولم تقطع صلتها بالماضي

(*) مفكر وداعية، دكتوراه في التاريخ الإسلامي، عضو المجلس الإسلامي السوري، نائب رئيس رابطة علماء المسلمين.

(١) بحوث عربية وإسلامية، لزاهية قدورة، ص(٤٣) والكلام للمؤرخ (روزنثال).

بل جعلته مِهمازًا لنهضتها، ثم جددت وابتكرت وقامت بين جوانبها حركات إصلاحية.

بل إن الأمم التي ليس لها تاريخ تصيَّدت لنفسها أساطير تحيا بها «ونحن نحمل وراء ظهورنا تاريخًا حقيقيًا شهده الزمان وشُهد له، وهو تاريخ لو تقسمه أهل الكوكب الأرضي جميعًا لكفاهم دافعًا شريفًا نحو هدف شريف»[1].

> **«هناك نظريات خاطئة صورت التاريخ الإسلامي على أنه سلسلة محكمة من الحكام الطغاة»**
>
> المؤرخ الغربي روزنثال

لا يخفى على عاقل أهمية التاريخ وأنه أكبر مُربٍّ للأمم كما يصفه البعض، وأنه «في ظاهره أخبار عن الأيام والدول والسّوابق من القرون الأول... وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيّات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق» كما يصفه ابن خلدون[2].

فلا شك أن التاريخ «يُعيد نفسَه»، وفيه تفسير لكثير من الأمور الحاضرة، كما أنه يلقي الضوء على الطريق الذي نسير فيه، فيعين على مواجهة المواقف الجديدة.

التاريخ الحضاري للأمة:

ليس من الإنصاف ولا العدل أن نقتصر في قراءة التاريخ على الجانب السياسي، بل يجب أن يُقرأ من جميع جوانبه: السياسية والحضارية؛ لأن الاقتصار على قراءة السياسي يُفقد التاريخَ جوهرَه ويُعطل دورَه، وإذا كان تاريخنا السياسي قد أصابه الضعف أو التدهور في بعض الفترات وبعض المناطق إلا أن فيه قممًا سامقة، وفيه عدل ورحمة وفيه ملوك صالحون، كما أنه لا يخلو من الاستبداد والأهواء.

أما تاريخنا الحضاري فكله قمم؛ فقد كانت العلوم بشتى فروعها في تقدم وازدهار، ولم تتأثر بظاهرة الضعف السياسي، وذلك لأن الأمة الإسلامية نشأت بالدين الذي يحث على طلب العلم، وأن أكثر المدارس كانت بدعم من الأوقاف الخيرية وجهود الأفراد والجماعات وليست بجهود الدول؛ لذا كانت حركة العلم مستقلة عن حركة الدول وأنظمتها.

وإذا كان التاريخ السياسي يسرُد تعاقُب الدول وأخبار المعارك فإن التاريخ الحضاري يذكر الذين بَنَوا صرحَ الفقه الإسلامي والذين كشفوا أسرارَ الداء والدواء، والذين نظَّموا العمل الاجتماعي مِن خلال مؤسسة الوقف.

وقد شبَّه أحد المؤرخين التاريخَ بنهر ذي ضفتين؛ فالنهر قد يختلط ماؤه ببعض الدماء والأشلاء، لكن على ضفتَيه الأشجارُ والزروعُ والثمارُ النافعة، وهكذا التاريخ: فقد تختلط أحداثه ببعض ما يُعكِّر صفوَ الماء، لكن نجد على ضفتيه العلماء الذين أفنَوا أعمارهم في خدمة العلم وخدمة الناس، هنا الأطباء والأدباء، وهنا الجغرافيُّون والمؤرخون الذين يَصِلونَ الأمةَ بعضَها ببعض في الزمان والمكان.

الجغرافيون الذي تنقَّلوا في البلدان طولًا وعرضًا وعرَّفوا المسلمين بأحوال إخوانهم في البلاد الأخرى، والمؤرخون الذين دَوَّنوا أحداثَها ووقائعَها، وربطوا ماضي الأمة بحاضرها بما دَوَّنوه مِن تراجم الرجال والنساء، فوجد المتأخرون في تلك التراجم المثلَ الأعلى للخُلق الفاضل في حياة الأجيال الأولى، وتأريخ الشعوب التي صمدت وصابرت واستطاعت الفكاك مِن أسر الأعداء.

لا أريد الإطالة في الحديث عن هذا الجانب فالكل يعلم أسماء شخصيات كبيرة وعظيمة في علوم الدين وعلوم اللغة وفي الطب والهندسة والرياضيات وعلم النبات والفلك، ومن يقرأ كتب التراجم سيجد العدد الكثير من العالمات في الفقه والحديث النبوي.

وفي الجانب الحضاري كانت مؤسسة الوقف مِن أعظم المؤسسات نفعًا للأمة، ومِن آثارها: المدارسُ والمشافي والمكتبات والمساجد ومؤسسات أخرى كثيرة تتعلق بمساعدة الإنسان وخدمته، وفي هذه الحضارة بُنيت أكثر من ثلاثمائة مدينة أكثرها باق إلى اليوم.

> **التاريخ كنهر ذي ضفتين؛ يختلط ماؤه ببعض الأحداث التي تعكّر صفوه، لكن على ضفتَيه الثمارُ النافعة المتمثّلة بالعلماء الذين أسسوا للحضارة.**

(١) عربي بين ثقافتين، لزكي نجيب محمود، ص (٢٢).
(٢) تاريخ ابن خلدون (٦/١).

حقائق من تاريخنا السياسي:

من الواضح أن الخلافة الراشدة قد انقطعت بتنازل الحسن بن علي ﷺ وتحولت الدولة إلى ملكية وراثية، ومعاوية ﷺ يعرف ذلك ويقول: «أنا أول الملوك»[١].

وقد عدَّ ابنُ خلدون أن فترة بعض ملوك بني أمية وبني العباس هي مِن المُلك الممتزج بالخلافة، ويقول: «وهُم وإن كانوا ملوكًا لم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي»[٢].

وجاء في الحديث عن جابر بن سمرة ﷺ قال: انطلقت إلى رسول الله ﷺ ومعي أبي، فسمعتُه يقول: (لا يزال هذا الدين عزيزًا منيعًا إلى اثني عشر خليفة) ثم تكلم بكلام خفي عليَّ فقلت لأبي ماذا قال؟ قال: (كلهم من قريش)[٣].

نعم لم يكن هناك شورى كالتي أرساها الخليفة عمر ﷺ ولم يكن هناك مجلس مؤلَّف من عدد معين من أهل الشورى[٤]، لكن استشارة أهل العلم والرأي لم تنقطع في جميع الأمور، فضلاً عن أنه كان هناك مجالس شورى بالفعل في عدد من الدول؛ فقد كان في الأندلس مجلس لشورى العلماء وعددهم عشرة والفتوى لهم.

لكن هل كل هذا يجعل تلك الدول كدول اليوم الاستبدادية الظالمة المدمِّرة للمجتمع؟

إن كلام المشنعين على التاريخ الإسلامي يُعطي انطباعًا للناس أن حكام الأمس مِن بني أمية وبني العباس مثل حكام اليوم! وهذه مغالطة كبيرة، بل هي جهل بتفاصيل تاريخ المسلمين، يقول الشيخ رشيد رضا: «حكامنا لا يُذكرون مع ملوك بني أمية وأمرائهم، حتى مع الحجاج الظالم، فأولئك فتحوا الممالك وهؤلاء أضاعوها، وأولئك حفظوا الشريعة مع تقصيرهم في الشورى وهؤلاء أضاعوها، وأولئك لا يَظلمون إلا مَن نازعهم وهؤلاء يَظلمون في كل شيء»[٥].

إنَّ فتوحات بني أمية هي الفتوحات الراسخة والباقية إلى اليوم بعد فتوحات الراشدين، وقد تقبلت الشعوب هذه الفتوحات لأنها كانت للبناء الحضاري وليست للنهب والسلب والتدمير كما هي دول الغزو الامبراطوري.

اعتنت الدولة الإسلامية على مر التاريخ باختيار عمّالها وأمرائها من أهل التقوى والعلم والكفاءة، على خلاف الدول المستبدة اليوم التي لا تختار موظفيها إلا ممن كان على شاكلتها في الظلم والبعد عن الدين.

إن الدول الاستبدادية لا تختار أمراءها وموظفيها إلا ممن كان على شاكلتها في الظلم والنهب والاستبداد والبعد عن الدين، بينما نجد أن أمراء بني أمية الفاتحين سواء في الأندلس أو الشرق كانوا من أهل التقوى والعلم والكفاءة، كعقبة بن نافع وحسان بن النعمان الغساني وزهير بن قيس الذي وصف بأنه من رؤساء العابدين وأشراف المجاهدين، وجاء بعده موسى بن نصير فاتح الأندلس وفي المشرق مثل: قتيبة بن مسلم الباهلي والجرَّاح بن عبد الله الحكمي ومحمد بن القاسم الثقفي، وغيرهم كثير.

كما أن تلك الدول لم تكن مطلقة السلطة، فالشريعة حاكمة، وحرَّاس الشريعة من العلماء الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر متوافرون، قائمون بما أمرهم الله، وقفوا حياتهم لخدمة الإسلام والتصدي للفساد والطغيان، ويمكن هنا تذكر مواقف: موقف المنذر بن سعيد البلوطي مع عبد الرحمن الناصر في الأندلس، والإمام الزهري مع هشام بن عبد الملك، وسفيان الثوري مع محمد المهدي العباسي.

وقد بقي الحال كذلك إلى أن أدخل السلطان العثماني عبد المجيد قوانين وضعية أتى بها من

(١) البداية والنهاية، لابن كثير (١٤٤/٨). وقد ورد أن معاوية رضي الله عنه عندما حُدث بحديث: (خلافةُ نُبوَّة، ثم يُؤتي الله الملك من يشاء) قال: «قَد رضينا بالملكِ». أخرجه أحمد (٢٠٥٠٥). وقد ورد في الحديث ما يدل على أن حكم معاوية رضي الله عنه ليس من الملك العضود، فقد أخرج الطبراني في المعجم الكبير (٢٣٦) أن رسول الله ﷺ قال: (أولُ هذا الأمر نبوَّة ورحمة، ثم يكونَ خلافةً ورحمة، ثم يكونُ مُلكًا ورحمة، ثم يكون إمارةً ورحمة، ثم يتكادَمُونَ عليه تكادُم الحُمُر)، وللحديث روايات أخرى.

(٢) تاريخ ابن خلدون (٢٥٨/١).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٢١).

(٤) لا نبرر عدم وجود الشورى، ولكن من قواعد التاريخ ألا نحاكم القدامى بمفاهيم عصرنا.

(٥) مجلة المنار (٤٢٦/٩).

شبهات حول التاريخ السياسي الإسلامي

التاريخ الإسلامي هو سلسلة من الظلم والفرقة والقتال على الحكم

التاريخ الإسلامي هو سلسلة محكمة من الطغاة المستبدين

الدولة الإسلامية لم تقم وفق الحكم الرشيد

القانون الفرنسي، فكان في ذلك إضعافٌ للعلماء ترتب عليه إلغاء القيود والضوابط التي كانت مفروضة على السلطان من قبل الشريعة الإسلامية، أي إن هذا أدى إلى انفراد السلطان بالحكم وصار أكثر انطلاقًا في سلطته[١].

> **إنَّ احتفاظ الفقه الإسلامي باستقلاله الكامل عن السلاطين والحكام أكبر مفخرة من مفاخر نظامنا السياسي على مرِّ التاريخ.**

هذا، وإن احتفاظ الفقه الإسلامي باستقلاله الكامل عن السلاطين والحكام كان أكبر مفخرة من مفاخر نظامنا السياسي، ومهما قيل عن بُعد أولئك السلاطين عن العمل ببعض تطبيقات الشورى إلا أنهم لم يُقحموا نفوذَهم في آراء الفقهاء، وكان هؤلاء الفقهاء يفضِّلون السجن والأذى على الخضوع لرغبات الحكام.

والحقيقة أن الفقهاء لم يكونوا الوحيدين الذين يتمتعون بهذه الاستقلالية، بل كذلك كانت سائر مؤسسات التعليم والقضاء، وكانت حِلَقُ العلم في المساجد مفتوحة للجميع، وكذلك كانت سائر مؤسسات المجتمع.

عملٌ بالواقع لا رضًا به:

إنَّ الواقع السياسي المستجدَّ على البلاد الإسلامية، والذي تغير فيه نظام الحكم مِن شورى إلى مُلك، وإن حقَّقَ أهدافًا مهمة مِن أهداف الخلافة في القيام بشؤون الدين والمسلمين، وإن أصبح واقعًا لم يستطع حتى الملوك الصالحون تغييرَه والانفلاتَ منه، إلا أن أهل العلم كانوا على معرفة بأن الأصل هو الخلافة والشورى، قال ابن حزم رحمه الله: «ولا خلاف بين أحد من أهل الإسلام في أنه لا يجوز التوارث فيها»[٢]، وقال ابن تيمية رحمه الله: «ما قال أهل السنة إن الواحد مِن هؤلاء كان هو الذي تجب توليته وطاعته في كل ما أمر به، بل كذا وقع، فيقولون: تولى هؤلاء وكان لهم سلطان وقدرة فانتظم لهم الأمر، وأقاموا مقاصد الإمامة مِن الجهادِ وإقامةِ الحجِّ والجُمَع والأعياد وأَمْنِ السبل، ولكن لا طاعة في معصية الله»[٣].

وفي المقارنة بين الخلافة والملك يسأل ابن تيمية: «هل الملك جائز في الأصل والخلافة مستحبة؟ أم ليس بجائز إلا لحاجة مِن نقصِ علم أو نقصِ قدرة؟ فنحتج بأنه ليس بجائز في الأصل، بل الواجب خلافة النبوة لقوله ﷺ: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي) فهذا أمر وتحضيض على لزوم سنة الخلفاء، وهذا دليل بيّن

(١) ينظر: نحو تيار سياسي للأمة، لطارق البشري ص (٥٤).
(٢) الفصل في الملل والنحل، لابن حزم (٧/٥).
(٣) المنتقى من منهاج الاعتدال، للذهبي، ص (٦١).

في الوجوب، وهنا قولان متوسطان: أن يقال الخلافةُ واجبة وإنما يجوز الخروج عنها بقدر الحاجة، أو أن يُقال يجوز قَبول الملك بما يُيَسِّرُ فعلَ المقصود بالولاية ولا يُعسره، وبعضهم يوجب الخلافة ويذمُّ مَن خرج عن ذلك مطلقًا كما هو حال الخوارج والمعتزلة وطوائف من المُتَسنِّنَة والمتزهدة، وبعضهم يبيح الملك مطلقًا مِن غير تقييد بسنة الخلفاء كما هو فعل الظلمة والمُرجِئة»[1].

> **حافظ المجتمع المسلم رغم التجزؤ السياسي على القيم الإسلامية، وهذا مما ساعد في العصر الحديث على مقاومة الاستعمار والاحتلال الأجنبي.**

ولابن خلدون رأي يؤيد فيه القولَ الثاني من القولين المتوسطين: «المُلك لمّا ذمّه الشّارع لم يذمّ منه الغلب بالحقّ وقهر الكافّة على الدّين ومراعاة المصالح وإنّما ذمّه لما فيه من التّغلُّب بالباطل وتصريف الآدميّين طوع الأغراض والشّهوات»[2].

وأما ولاية المتغلب التي يدندِنون حولها كثيرًا، فإن العلماء قالوا: إنها للضرورة وتقدَّرُ بقدرها بحسب المصلحة ويجب إزالتها عند الإمكان، واشترطوا في طاعته إقامةَ الجهاد والجُمعات وإنصافَ المظلوم[3].

فالقول بجواز إمامة المتغلب ليس فيه تبرير لأي ظلم أو طغيان، ولا تشريع لولاية المتغلب، لكنه عمل بالمقدور عليه وما يصح به قيام أمور الناس، وصلاح دينهم ودنياهم.

التاريخ السياسي والأمة:

رغم التجزُّؤ السياسي وظهور الدول الصغيرة المنقطعة بعد القرن الثالث الهجري إلا أنَّ الأمة بقيت موحَّدة ثقافيًا وسياسيًا فالعالِم يأتي من الشرق ليستقرَّ في الغرب ويبثُّ علومه دون أي عوائق، والمسلم ينتقل من بلد إلى بلد ويستقر فيها ولا يشعر بأنه غريب، فلا حدود (ولا جوازات وتأشيرات) وليس هناك حواجز بسبب العِرق أو اللون أو الأصل الطبقي، ففي ظل هذه الحضارة وصل المماليك إلى أعلى درجات السلطة، وقد حافظ المجتمع المسلم ورغم التجزؤ السياسي على القيم الإسلامية، وهذا مما ساعد في العصر الحديث على مقاومة الاستعمار والاحتلال الأجنبي.

مقارنة مع تاريخ الغرب:

إن الذين ينظرون إلى تاريخنا السياسي ويُشَنِّعون عليه معجَبين بتاريخ الغرب، إنما ينظرون إلى تاريخ الغرب مجملًا دون تفاصيل، وينظرون إليه في زمنه القريب، ويعجبون به كالذي ينظر إلى الجبل مِن بعيد فلا يرى إلا أعلاه، يرى شخصيات سياسية وأدبية وعلمية منتقاة، ولا ينظر إلى بقية المجتمع وبقية شؤونه وأحواله، ولا إلى تاريخه.

لا ينظر هؤلاء إلى أن ألمانيا قبل مئة عام كانت مجزأة إلى (٣٩) دولة، ولا ينظرون إلى حروب الثلاثين وحروب السبعين بين دول أوروبا، ولا ينظرون إلى الحرب الأهلية في أمريكا التي كلفت أكثر من مليون قتيل، ولا يعلمون -أو لا يريدون أن يعلموا- أن فيلسوف السياسة في القرن السابع عشر (جون لوك) كان يقول: «للحاكم المدني سلطة مطلقة على كل أفعال الناس، وعليهم أن يطيعوا القوانين التي يسنُّها الحاكم حتى لو كانت خاطئة» وأن السياسي (هوبز) كان يقول: «أفوض وأتخلى عن حقي لهذا الجمع من الأشخاص (الدولة) وأبيح لها جميع أفعالها» وأن ملك بريطانيا (جيمس الأول) كان يقول: «إن الله هو الذي اختار الملوك، فهم المسؤولون أمامه فقط، ولا حكم للقانون عليهم، لأنهم فوقه وليس للرعية إلا أن تطيع ولو كان الملك شريرًا» ولويس الرابع عشر ملك فرنسا كان يقول: «الدولة أنا»، ولويس الخامس عشر كان يقول: «في شخصي وحدي تستقر السلطة العليا»، فهل قال أحد مِن ملوك المسلمين أنه فوق الشريعة وأن الله سبحانه هو الذي اختاره؟

كانت أول حركة إصلاح في بريطانيا عام (١٨٣٢م) حيث نُقلت السلطة التي كانت للأغنياء وملاك الأراضي إلى الطبقة الوسطى، ثم توسع حق الانتخاب ما بين (١٨٦٧ـ ١٩١٨) وأصبح لكل

(١) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية (٢٤/٣٥)، باختصار وتصرف يسير.
(٢) تاريخ ابن خلدون (٢٥٤/١).
(٣) تفسير المنار، لرشيد رضا (١٨٠/١٢)، وينظر: العواصم والقواصم، لمحمد بن إبراهيم الوزير (٢١٢/١) وما بعدها.

البالغين رجالاً ونساء لهم الحق في الانتخابات[1]، لقد تطورت الديمقراطية البريطانية على مدار قرنين ونصف من الديمقراطية النظرية إلى ديمقراطية كما هي واقعهم اليوم، ولا شك أن هذا الذي وصلوا إليه هو تجربة ناجحة نسبيًا، أي هذا أحسن ما وصلوا إليه في نظام الحكم بما أنّه ليس عندهم في النصرانية شيء يتعلق بنظم الحكم.

وكما قال رئيس وزراء بريطانيا (تشرشل): هذا أحسن الأسوأ. وهي تجربة بشرية بدأت بعد أقل من قرن تظهر عيوبها ونقائصها، وبالتأكيد هناك ما هو أفضل منها وأحكم وأسلم لو فكر المسلمون بطريقة صحيحة.

> **الأمة الإسلامية أمة غير منقطعة؛ إذا ضعُفت في جانب قويت في جانب آخر، فالخط البياني للحضارة الإسلامية كثير القمم وقد يهوي في لحظات ضعف وعجز، لكنه يعاود الصعود من جديد.**

ملوك صالحون:

هناك أسماء مشهورة في تاريخنا مِن أهل العلم أو الحكم يتكرر ذكرها والكتابة عنها، لكن هناك أيضًا أسماء غير مشهورة ظهرت في أزمان مختلفة وأماكن مختلفة تمثل مبادئ الإسلام وشريعة الإسلام وحفظ كيان الأمة. وهذا يدل على أن الأمة الإسلامية أمة غير منقطعة إذا ضعُفت في جانب قويت في جانب آخر، وفي أحلك الظروف يظهر هنا وهناك ملوك صالحون وعلماء ربانيون، فالخط البياني للحضارة الإسلامية كثير القمم وقد يهوي في لحظات ضعف وعجز، ولكنه يعاود الصعود من جديد.

ومن هؤلاء الملوك في الغرب الإسلامي:

١. أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن أمير دولة الموحدين:

تولى المُلك عام (٥٨٠ هـ)، كانت مجالسه مزينة بحضور العلماء، تُفتتح بالتلاوة ثم بالحديث، وكان يجيد حفظ القرآن ويحفظ الحديث ويتكلم في الفقه ويناظر، بنى مستشفى غرس فيه جميع الأشجار ورتب له كل يوم (٣٠) دينارًا للأدوية، وكان يجمع الزكاة ويفرقها بنفسه، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وصنف كتابًا في العبادات وله فتاوى، وفي عام (٥٩٠) كتب له ملك قشتالة الأسباني (الأذفونش) يهدده ويطلب منه بعض البلاد فلما قرأ الكتاب غضب وكتب له (ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها) وحشد جيشًا كبيرًا وتمت الملحمة الكبرى ونزل النصر وهي موقعة (الأرك).

٢. محمد بن عبد الله بن محمد التُّجيبيّ الأندلسيّ:

صاحب (بطليوس) والثغر الشمالي الأندلسي، كان رأسًا في العلم والأدب والشجاعة والرأي، وكان

(١) في عام ١٨٧٧م افتُتح في العاصمة استانبول مجلس المبعوثان (البرلمان) العثماني وهو يضم كل الأعراق في الدولة وكل الطوائف.

مناغرًا للروم (الأسبان) شجًى في حلوقهم، له تأليف كبير في الآداب يكون عشر مجلدات، كتب إلى المعتمد بن عباد ملك إشبيلية: أيها الملك إن الروم إذا لم تُغز غزت، ولو تعاقدنا تعاقد الأولياء المخلصين فَلَلْنا حَدَّهم وأذللنا جَدَّهم.

وله تفسير للقرآن، ومع استغراقه في الجهاد لا يترك العلم وإقامة العدل، وكان يبيت على أهبة الاستعداد في منظرة له، ولا ينام إلا قليلًا.

وهذا مثال من الشرق الإسلامي، من القارة الهندية:

٣. السلطان خُرّم بن سليم الملقب بـ (أورنك زيب) من السلالة التيمورية (التركية المغولية)، جده (جهان كير) هو الذي بنى (تاج محل) المشهور.

ولد خرّم بن سليم عام (١٠٢٨)هـ (١٦١٩) م وكان عالمًا زاهدًا، حارب البدع والخرافات، وأبطل الاحتفالات الوثنية، وألغى القوانين المناقضة للإسلام، وقضى على الدويلات الرافضية في الهند، ورفع المظالم عن الناس، وألغى التقويم الإيراني، ومِن أعظم أعماله تكوين لجنةٍ مِن العلماء لترتيب المسائل الفقهية بعبارة سهلة واضحة حتى يسهل الأمر على القضاة ويكفل تنفيذ القوانين، وقد تم هذا العمل الضخم في ستة مجلدات ويعرف بـ (الفتاوى الهندية) وهو على المذهب الحنفي، ومن مشايخ هذا الملكِ: الشيخُ عبد اللطيف سلطان، ومعصوم بن الشيخ أحمد السرهندي، ومحمد هاشم الكيلاني، وكان ملتزمًا بالسنة محافظًا على الصلوات.

ترجم له محمد خليل المرادي في كتابه (سلك الدُّرَر في أعيان القرن الثاني عشر) وقال عنه: «سلطان الهند، أمير المؤمنين، والمجاهد في سبيل الله، والملك القائم بنصرة الدين، فتح الفتوحات العظيمة».

بلغت الدولة في عهده من القوة والاتساع والازدهار ما لم تكن قبله ولا بعده، حكم خمسين عامًا، كانت حدود دولته من آسام وأركان في بورما وأفغانستان إلى شواطئ المحيط الهندي في الجنوب، توفي في ٢٨ ذي القعدة (١١١٨هـ) (١٧٠٧م) رحمه الله.

إن قراءة التاريخ والرجوع إلى الماضي هو للفهم والمقارنة وإنصاف أهل الفضل والعلم والجهاد، وليس للوقوف عند التمجيد فقط كما يتوهَّم الناقدون، والتاريخ من الأهمية بحيث إنّه (يجب أن يخلد في الصدور قبل السطور، وأن يكتب على الحِدق قبل الورق) كما يقول الأمير شكيب أرسلان.

إنَّ حركة التاريخ ليست تقدُّمًا دائمًا كما ظنَّ أو كما هوى بعضُ فلاسفة الغرب، ولكنها حركة صُعودٍ وهبوط واجتماع وتشتُّت، وهداية وضلال قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

تأصيل

ضوابط تغيّر الفتوى بتغيّر الزمان والمكان

د.محمد بلال غنام(*)

استغل بعض المعاصرين قاعدة «تغير الأحكام» بهدف تغيير أحكام الدين، فأنكرها آخرون سدًا للذريعة، بينما هي قاعدة قد أقرّها أهل العلم منذ القدم، فكيف يكون الجمع بين ثبات الشريعة وقاعدة «تغيّر الأحكام»؟ وما أثر الأخذ بهذه القاعدة؟ وما أثر ترك العمل بها؟ وهل من طريق لإغلاق توظيفها بطريقة غير صحيحة؟ هذا هو موضوع المقال.

مقدمة:

كثر في عصرنا الحديث عن قاعدة من القواعد الفقهية المشهورة، وهي: «لا ينكر تغير الأحكام بتغير الزمان والمكان»، والتي أقرَّها أهل العلم من غير إنكار أو استشكال؛ لوضوح القاعدة في أذهانهم، وظهور مواطن استعمالها في كلامهم، لكن لمّا حاول بعض المعاصرين توظيفها بالباطل لتغيير أحكام الدين وتحريف الشرع القويم، ظهر من ينكر هذه القاعدة ويرى أنها مخالفة لإجماع المسلمين.

وهذا المقال في ضبط فهم هذه المقولة، وضبط مناط استعمالها.

ثبات الشريعة الإسلامية وشمولها:

اتفق أهل العلم على ثبوت أحكام الشريعة الإسلامية وشمولها، وهذا من كمالها الذي أنعم الله به علينا، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

قال الزركشي رحمه الله: «كلّ حكم ثبت لنا بقول الله أو بقول رسوله أو بإجماع أو قياس فهو دائم إلى يوم القيامة»(١).

«فعموم الشريعة سائرَ البشر في سائر العصور مما أجمع عليه المسلمون، وقد أجمعوا على أنها مع عمومها صالحة للناس في كل زمان ومكان»(٢).

(*) أكاديمي ومحاضر جامعي، باحث في الدراسات الإسلامية.

(١) البحر المحيط في أصول الفقه، للزركشي (٢١٧/١).

(٢) مقاصد الشريعة الإسلامية، للطاهر ابن عاشور (٢٧٤/٣).

والقول بعدم ثبات الشريعة يُفضي إلى إزالتها والتملّص من أحكامها، كما أشار إلى ذلك الجويني رحمه الله بقوله: «لو كانت قضايا الشرع تختلف باختلاف الناس، وتناسخ العصور، لانحلَّ رباطُ الشرع»[١].

موقف بعض المعاصرين من قاعدة «تغير الأحكام»:

أشكل على بعض المعاصرين التوفيق والجمع بين ما تقرر من ثبات الشريعة باختلاف العصور، وقاعدة «تغير الأحكام».

فطار بعضهم بقاعدة «تغير الأحكام»، وضرب بها مبدأ ثبات الشريعة المجمع عليه، وزعم أن كل تغير للزمان أو المكان يوجب تغيرًا في الأحكام، وأن حكم الله ليس واحدًا وأن شرعه متغير، دون مراعاة لشرط أو قيد[٢]، وأرادوا من ذلك تطويع الأحكام الشرعية للثقافة الغربية الغالبة، بتغيير الأحكام المتعلقة بتحريم الربا، وقيام الرجل على المرأة، وزواج المسلمة من الكافر، ونحو ذلك.

وعلى الطرف المقابل هناك من يرى أن القاعدة ليست نصًا من الكتاب أو السنة ولم ترد عن سلف الأمة، وهي بذلك متعارضة مع مبدأ ثبات الشريعة المجمع عليه، فذهبوا إلى إنكارها وجعلها من محدثات الدين أو جعلها قاعدة فرعية صورية لا حقيقية؛ سدًّا لذريعة استغلال أولئك المعاصرين لها في التشكيك بالشريعة أو تحريفها. بينما اقتصر بعضهم على إنكار الإطلاق الموجود في القاعدة[٣].

> **القول بعدم ثبات الشريعة يُفضي إلى إزالتها والتملّص من أحكامها، كما أشار إلى ذلك الجويني رحمه الله بقوله: «لو كانت قضايا الشرع تختلف باختلاف الناس، وتناسخ العصور، لانحلَّ رباطُ الشرع»**

> **لعل من أوائل من نبّه إلى ثبوت قاعدة «تغير الأحكام» أم المؤمنين عائشة ﵂ في قولها: «لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساءُ لمنعهن كما مُنعت نساءُ بني إسرائيل»**

ثبوت القاعدة عند علماء المسلمين:

هذه القاعدة «لا ينكر تغير الأحكام بتغير الزمان والمكان» ثابتة من كلام أهل العلم وتطبيقاتهم العملية.

ولعل من أوائل من نبّه إلى معناها أم المؤمنين عائشة ﵂ في قولها: «لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساءُ لمنعهن كما مُنعت نساءُ بني إسرائيل»[٤]؛ ففي هذا إشارة صريحة إلى تغير الحكم بتغير الزمان.

وقد جرى العلماء السابقون من أصحاب المذاهب الأربعة على العمل بهذه القاعدة كما أشار إلى ذلك ابن عابدين الحنفي والقرافي المالكي والزركشي الشافعي وابن القيم الحنبلي[٥].

وهي وإن لم ترد بهذا اللفظ فقد ورد التعبير عنها بألفاظ مختلفة، ومما وقفتُ عليه:

١. «الأحكام المرتبة على العوائد تتبع العوائد وتتغير عند تغيرها»[٦].
٢. «الأحكام قد تختلف باختلاف الزمان»[٧].
٣. «تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد»[٨].
٤. «الحوادث تتجدد والمصالح تتغير بتغير الزمان والمكان»[٩].
٥. «لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان»[١٠].
٦. «لا ينكر تغير الأحكام الاجتهادية بتغير الأزمان»[١١].

---

(١) نهاية المطلب، للجويني (٣٦٤/١٧).
(٢) يُنظر في بيان القول ومناقشته كتاب: الاجتهاد المقاصدي ضوابطه ومجالاته، لنور الدين خادمي، ص (٩١).
(٣) يُنظر: المدخل المفصل لمذهب الإمام أحمد، لبكر أبو زيد (٨٤/١)، الثبات والشمول في الشريعة الإسلامية، لعابد السفياني، ص (٤٤٨).
(٤) أخرجه البخاري (٨٦٩).
(٥) يُنظر: حاشية ابن عابدين (٧٨/١)، الفروق، للقرافي (٤٥/١)، البحر المحيط في أصول الفقه، للزركشي (٢١٩/١)، إعلام الموقعين، لابن القيم (٣٨/٣).
(٦) الفروق، للقرافي (٢٩/٣).
(٧) نقلها فخر الدين الزيلعي (ت: ٧٤٣هـ) عمن سبقه من علماء الحنفية في تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق (١٢٥/٥).
(٨) عنون بها ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) في كتابه إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣٣٧/٤).
(٩) تشنيف المسامع بجمع الجوامع، للزركشي (٤٤/٣).
(١٠) شرح القواعد الفقهية، لأحمد الزرقا، ص (٢٢٧).
(١١) الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية، للبورنو، ص (٣١١).

قاعدة تغير الأحكام

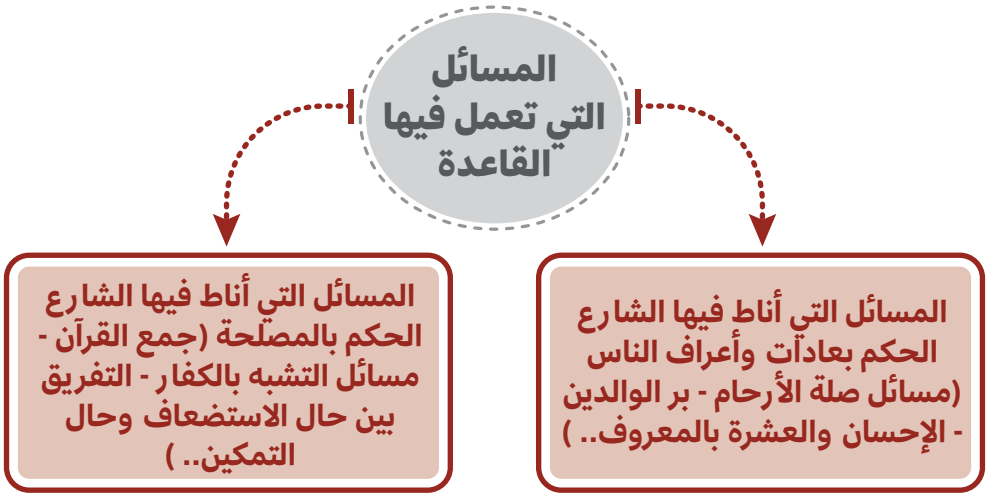

ولا فرق بين كل هذه الألفاظ، فسواء ذكرنا «الفتوى» أو «الحكم» فالمؤدى واحد كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

المعنى الصحيح للقاعدة:

أهم ما ينبغي معرفته لفهم هذه القاعدة هو تحرير موضع النزاع، وذلك بمعرفة أمرين:

- **الأول:** أنواع الأحكام الشرعية، وتحديد المقصود من «الأحكام» في القاعدة.
- **الثاني:** معنى «التغير» الوارد في القاعدة.

الأمر الأول: أنواع الأحكام الشرعية:

من الأسباب التي أدت إلى الانحراف بهذه القاعدة عن مسارها الصحيح: عدم تحديد نوع «الأحكام» التي تتناولها.

فالقاعدة ليست مطلقة تتناول جميع المسائل والأحكام، وإنما تتناول نوعًا منها لا تتجاوزها [1].

فالأحكام الشرعية تنقسم إلى قسمين:

١. الأول: جَعَلَ الشارع فيها الحكم ثابتًا مبنيًا على علةٍ لا تتغير بتغير الزمان والمكان.

٢. الثاني: جَعَلَ الشارع فيها الحكم مبنيًا على علة قد تتغير بتغير الزمان والمكان والأحوال والأشخاص.

ونقل ابن قيم الجوزية هذا التقسيم فقال ﷺ:

«الأحكام نوعان:

١. نوع لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها، لا بحسب الأزمنة ولا الأمكنة، ولا اجتهاد الأئمة، كوجوب الواجبات، وتحريم المحرمات، والحدود المقدرة بالشرع على الجرائم ونحو ذلك، فهذا لا يتطرق إليه تغيير، ولا اجتهاد يخالف ما وضع له.

٢. والنوع الثاني: ما يتغير حسب المصلحة له، زمانًا ومكانًا وحالًا، كمقادير التعزيرات، وأجناسها، وصفاتها، فإن الشارع ينوع فيها بحسب المصلحة»[2].

> **ليس كل تغيّر في صورة المسألة مؤثرٌ في تغيّر حكمها. والعلماء إنما أناطوا تغيّر الأحكام بتغيّر الزمان والمكان لأنهما مظنّة لتغيّر صورة المسألة المؤثر في حكمها**

(١) المرجع السابق، ص (٣١١)، والقواعد الفقهية وتطبيقاتها من المذاهب الأربعة، لمحمد الزحيلي (٣٥٥/١).
(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم (٣٣٠/١).

فالقسم الأول لا يتغير حكمه أبدًا؛ لأنه لا مجال فيه للاجتهاد، وإنما تغيره إن حصل إنما يحصل بالنسخ، والنسخ قد انتهى بوفاة المصطفى ﷺ.

وأما القسم الثاني فحكمه يدور مع علته وجودًا وعدمًا، فيتغير بتغير العلة أو ما عُلِّق عليه الحكم.

والخلط بين القسمين هو الذي أدى إلى صرف القاعدة عن مسارها الصحيح؛ ولذلك قال ابن القيم رحمه الله:

«وهذا باب واسع، اشتبه فيه على كثيرٍ من الناس الأحكامُ الثابتة اللازمة التي لا تتغير، بالتعزيرات التابعة للمصالح وجودًا وعدمًا»[(١)].

الأمر الثاني: معنى «التغير» الوارد في القاعدة:

ومن أسباب عدم تصور القاعدة تصوّرًا صحيحًا عدم تحرير المراد من «التغيّر» المذكور في القاعدة.

فالتغير نوعان:

١. تغيّر الحكم في عين المسألة الواحدة، أي: أن يختلف الحكم في الواقعة ذاتها، وليس هذا هو المقصود بالقاعدة؛ فالخطاب الشرعي لا يتغير في عين المسألة الواحدة إلا بالنسخ، ولا يمكن أن يختلف الحكم الشرعي في واقعتين متماثلتين في الحقيقة والعلة والسبب والمتعلقات؛ لأن الشريعة لا تفرق بين المتماثلات ولا تسوي بين المختلفات. ولا فرق بين الحكم الشرعي والفتوى في ذلك، بل كلاهما ثابت بحسب المسألة الواحدة، وما الفتوى إلا بيان للحكم الشرعي الذي هو أثر خطاب الله.

٢. تغير الحكم بين مسألتين لوجود اختلافٍ بينهما، أو تغير الحكم في المسألة لاختلاف حيثياتها ومتعلقاتها، وهذا هو المقصود بالقاعدة، فالعلماء عبروا عن الاختلاف في الحكم بين المسائل بالتغير، وهذا على وجه المسامحة والتجوز[(٢)]، ولذلك من التدقيق في العبارة قول الزركشي رحمه الله: «فلا نقول: إنَّ الأحكام تتغير بتغير الزمان بل باختلاف الصُّورة الحادِثَة»[(٣)].

فلا يجوز تغيير الأحكام والفتاوى لمجرد تغير الزمان أو المكان، بل لابد أن يكون للزمان أو المكان أثر في تغير صورة المسألة وحيثياتها مما يؤثر في حكمها، فليس كل تغير في صورة المسألة مؤثرًا في تغير حكمها.

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم (٥٧٣/١).
(٢) يُنظر: أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله، للسلمي، ص (٤٧٠-٤٧٣).
(٣) البحر المحيط، للزركشي (٢٢٠/١).

والعلماء إنما أناطوا تغير الأحكام بتغير الزمان والمكان لأنهما مظنة لتغير صورة المسألة المؤثر في حكمها.

وبناءً على ما سبق: فيُمكن أن يقال إن الضابط العام الذي يشمل جميع المسائل المنطوية تحت القاعدة هو:

«كل مسألة علق الشارع فيها الحكم على مناط يقبل التغير، فالحكم الشرعي يتغير بتغيره».

فهذا هو الضابط العام لهذه القاعدة، وبه يُعرف أن القاعدة من باب تحقيق المناط[١].

مثل: إناطة الشارع الحكم بالزمان أو المكان أو الأعراف أو الأشخاص أو المصلحة أو وجود العلة أو السبب، أو غير ذلك. وسيأتي التمثيل.

وقد يستعمل العلماء هذه القاعدة -من باب التوسع- في الأحوال الاستثنائية كالأعذار الاضطرارية، مثل: إباحة أكل الميتة للمضطر ونحو ذلك، وإن كان الحكم هنا حقيقة لم يتغير من حيث الأصل، وإنما تغير لعذر طارئ في حالة خاصة.

تغيّر الأحكام لا يتناول جميع الشريعة، وليس متروكًا للهوى والتشهي، بل هو مضبوطٌ بضوابط الشرع، وعليه فلا تعارض بين ثبات الشريعة في المسألة الواحدة المبنية على علة ثابتة، وبين القاعدة المبنية على الأحكام المعلّقة بعلّة متغيرة أو في مسائل مختلفة في صورها.

الحالات التي تُعمل فيها القاعدة:

تُعمل القاعدة في أنواع متعددة من المسائل، منها:

١. المسائل التي أناط الشارع فيها الحكم بالعادات والأعراف التي قد تتغير بتغير الزمان والمكان والأحوال، ولم يأت فيها الشارع بأمور محددة بل تركها لأعراف الناس، قال القرافي رحمه الله: «الأحكام المرتبة على العوائد تتبع العوائد وتتغير عند تغيرها»[٢].

وقد حصر بعض العلماء هذه القاعدة في المسائل المشار لها؛ لذلك جعلوها فرعًا عن القاعدة الكبرى: «العادة مُحَكَّمة»[٣]، والحقيقة أن القاعدة أوسع من ذلك وأشمل، كما سيتضح إن شاء الله.

ومن الأمثلة على هذه المسائل المناطة بالعرف: المسائل المتعلقة بصلة الأرحام وبر الوالدين والإحسان للزوجة والعشرة بالمعروف والإنفاق عليها وعلى الذرية، فكل ذلك قد يتغير مع اختلاف الزمان والمكان بحسب العرف[٤].

٢. المسائل التي أناط الشارع فيها الحكم بالمصلحة، فهذه المسائل يتغير حكمها بتغير المصلحة، يقول الزركشي رحمه الله: «الحوادث تتجدد والمصالح تتغير بتغير الزمان والمكان»[٥]، وكذلك المسائل التي بناها العلماء على المصلحة المعتبرة أو المرسلة، ومن ذلك:

أ. جمع القرآن الكريم في مصحف واحد.

ب. تدوين السنة بعد أن كان منهيًا عن كتابتها.

ج. تضمين الأجير المشترك كالخياط، لئلا تضيع حقوق الناس.

٣. مسائل تغير فيها الحكم لاختلاف الزمان بفساد أحوال الناس، ومن ذلك:

أ. جواز إغلاق أبواب المساجد في غير أوقات الصلاة صيانة للمسجد من السرقة[٦].

ب. «منع عمر بن عبد العزيز عماله عن القتل إلا بعد إعلامه وإذنه به بعد أن كان مُطلقًا لهم، لما رأى من تغير حالهم»[٧].

٤. مسائل تغير فيها الحكم لاختلاف المكان، مثل: جعل التشبه بالكفار في بلاد الإسلام أشد من التشبه بالكفار في بلاد الكفار، لأن مخالفتهم هناك قد لا تكون متيسرة، يقول ابن تيمية رحمه الله: «لو أن المسلم بدار حرب، أو دار

(١) يُنظر: الاجتهاد المقاصدي ضوابطه ومجالاته، لنور الدين خادمي، ص (١٠٤)، الثبات والشمول في الشريعة الإسلامية، لعابد السفياني، ص (٤٤٨).
(٢) الفروق، للقرافي (٢٩/٣).
(٣) يُنظر: الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية، للبورنو، ص (٢٧)، شرح القواعد الفقهية، لأحمد الزرقا، ص (٢٢٧).
(٤) يُنظر: الفروق، للقرافي (٤٥/١).
(٥) تشنيف المسامع بجمع الجوامع، للزركشي (٤٤/٣).
(٦) الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية، للبورنو، ص (٣١١).
(٧) شرح القواعد الفقهية، لأحمد الزرقا، ص (٢٢٩).

كفر غير حرب؛ لم يكن مأمورًا بالمخالفة لهم في الهدي الظاهر، لما عليه في ذلك من الضرر بل قد يستحب للرجل، أو يجب عليه، أن يشاركهم أحيانًا في هديهم الظاهر، إذا كان في ذلك مصلحة دينية: من دعوتهم إلى الدين، والاطلاع على باطن أمرهم لإخبار المسلمين بذلك، أو دفع ضررهم عن المسلمين، ونحو ذلك من المقاصد الصالحة»[١].

«والأحكام المبنية على العرف تتغير بتغيره زمانًا ومكانًا، لأن الفرع يتغير بتغير أصله، ولهذا يقول الفقهاء في مثل هذا الاختلاف: إنه اختلاف عصر وزمان، لا اختلاف حجة وبرهان»

عبد الوهاب خلاف رحمه الله

٥. مسائل تغير فيها الحكم لاختلاف الأحوال، ومن أمثلة ذلك:

أ. التفريق بين حال الاستضعاف وحال التمكين، فالجهاد كان ممنوعًا وقت الاستضعاف وصار فرضًا بعد التمكين.

ب. التفريق بين حال وجود الأعذار كالاضطرار وتعذر الإتيان بالواجب والأحوال الطبيعية، مثل: قَبول شهادة وقضاء غير العدل، قال الشيخ أحمد الزرقا رحمه الله: «لما ندرت العدالة وعزت في هذه الأزمان قالوا بقَبول شهادة الأمثل فالأمثل والأقل فجورًا فالأقل.... وقالوا نظير ذلك في القضاة وغيرهم، إذا لم يُوجد إلا غير العدول أقمنا أصلحهم وأقلهم فجورًا، لئلا تضيع المصالح وتتعطل الحقوق والأحكام. فقد حَسُنَ ما كان قبيحًا واتسع ما كان ضيقًا، واختلفت الأحكام باختلاف الأزمان»[٢].

ج. التفريق بين حال الضيق وحال السعة، كنهي النبي ﷺ عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاثة أيام ثم أذن بذلك وقال: «إنما نهيتكم من أجل الدَّافَّةِ التي دَفَّت، فَكُلوا وَادَّخِرُوا وَتَصَدَّقُوا»[٣].

الحالات التي لا تُعمل القاعدة فيها:

بناء على ما سبق فلا يجوز إعمال القاعدة في المناط الثابت غير المتغير[٤]، ومن ذلك:

١. المسائل الاعتقادية، مثل: توحيد رب العالمين والبراءة من الشرك وأهله.

٢. المسائل المعلومة من الدين بالضرورة، مثل: أصول العبادات والمحرمات كوجوب الصلوات الخمس، وتحريم الظلم والزنى.

٣. المسائل المجمع على عدم تغيرها، مثل: مضي الجهاد إلى يوم القيامة، وتحريم الجمع بين الأختين في النكاح.

٤. المسائل التي لا تتغير فيها المصلحة بل هي ثابتة على مر الأزمان، مثل: أصول الفضائل والقيم والأخلاق.

٥. المسائل التعبدية التي لا مجال للرأي والاجتهاد فيها، مثل: الكفارات والمقدرات.

وجود أحكام خاصة لكل زمان لا يعني الإتيان بالبدع والمحدثات، بل الشريعة جعلت لكل زمان أحكامًا تتناسب مع ذلك الزمان، قال عز الدين بن عبد السلام: «يَحدُثُ للناس في كل زمان من الأحكام ما يُنَاسِبُهُم»

الجمع بين ثبات الشريعة وقاعدة «تغير الأحكام»:

تبيّن أن التغير للأحكام لا يتناول جميع الشريعة، وليس أمرًا متروكًا للهوى والتشهي، بل مضبوطٌ بضوابط الشرع، وعليه فلا تعارض بين ثبات الشريعة في المسألة الواحدة المبنية على علة ثابتة، وبين القاعدة المبنية على الأحكام المعلقة بعلة متغيرة أو في مسائل مختلفة في صورها.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لابن تيمية (٤٧١/١).
(٢) شرح القواعد الفقهية، لأحمد الزرقا، ص (٢٢٩).
(٣) أخرجه مسلم (١٩٧١).
(٤) يُنظر: الاجتهاد المقاصدي ضوابطه ومجالاته، لنور الدين خادمي، ص (١٥٤)، القواعد الفقهية وتطبيقاتها من المذاهب الأربعة، لمحمد الزحيلي (٣٥٥/١).

وإطلاق القاعدة لا يجعلنا نردها مع تقرير العلماء لها، بل نحملها على التجوز في الاستعمال السائغ في اللغة والوارد في الكتاب والسنة.

وقول «إن الحكم يختلف باختلاف المصلحة»: لا يدل على عدم ثبات الشريعة بل إن الشريعة ثابتة في اتباع المصلحة، وهذا طريق من طرق صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان، فالقول بالمصالح لا ينافي صلاحية الشريعة ولا ينافي عمومها، وليس هو اختلاف في أصل الخطاب وإنما اختلاف في تطبيق أصل عام من أصول الشرع.

ومثل ذلك في «اختلاف الحكم باختلاف الأعراف والعوائد»: فهذا لا يدل على اضطراب الشريعة بل هو من دوران الحكم مع علته وسببه، قال الشاطبي رحمه الله: «اعلم أن ما جرى ذكره هنا من اختلاف الأحكام عند اختلاف العوائد فليس في الحقيقة باختلاف في أصل الخطاب، لأن الشرع موضوع على أنه دائم أبدي لو فرض بقاء الدنيا من غير نهاية، والتكليف، كذلك لم يحتج في الشرع إلى مزيد، وإنما معنى الاختلاف في أن العوائد إذا اختلفت رجعت كل عادة إلى أصل شرعي يحكم به عليها»[١].

وقال الشيخ عبد الوهاب خلاف رحمه الله: «والأحكام المبنية على العرف تتغير بتغيره زمانًا ومكانًا، لأن الفرع يتغير بتغير أصله، ولهذا يقول الفقهاء في مثل هذا الاختلاف: إنه اختلاف عصر وزمان، لا اختلاف حجة وبرهان»[٢].

ووجود أحكام خاصة لكل زمان لا يعني الإتيان بالبدع والمحدثات، بل الشريعة جعلت لكل زمان أحكامًا تتناسب مع ذلك الزمان، قال عز الدين بن عبد السلام: «يَحدُثُ للناس في كل زمان من الأحكام ما يُنَاسِبُهُم»[٣].

وقال الزركشي: «وقول عمر بن عبد العزيز: «يحدث للناس أقضية على قدر ما أحدثوا من الفجور» أي يُجَدِّدُونَ أسبابًا يقتضي الشرع فيها أمورًا لم تكن قبل ذلك؛ لأجل عَدَمِهِ منها قبل ذلك، لا لأنها شَرعٌ مُجدَّد. فلا نقول: إنَّ الأحكام تتغيَّرُ بتغيُّر الزَّمان بل باختلاف الصورة الحادثة»[٤].

وهذا هو معنى صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان، قال الطاهر ابن عاشور رحمه الله: «فتعيَّن أن يكون معنى صلوحية شريعة الإسلام لكل زمان أن تكون أحكامها كليات ومعاني مشتملة على حِكَم ومصالح، صالحةً لأن تتفرع منها أحكام مختلفة الصور متحدة المقاصد. ولذلك كانت أصول التشريع الإسلامي تتجنب التفريع والتحديد»[٥].

فالشريعة بعد وفاة النبي ﷺ ثابتة في الكليات والجزئيات، ولا يقال بالتفريق بينهما بعد وفاته ﷺ.

> **«من أفتى الناس بمجرد المنقول في الكتب على اختلاف عُرفهم وعوائدهم وأزمنتهم وأمكنتهم وأحوالهم وقرائن أحوالهم فقد ضل وأضل»**
>
> ابن قيم الجوزية رحمه الله

عدم الأخذ بهذه القاعدة جمود وإعنات:

إنَّ عدم مراعاة تغير الزمان والمكان في الفتوى جمود على حرفية النصوص دون مراعاة معانيها، ودون مراعاة اختلاف الزمان والمكان والعرف هو من الجهل والضلال، يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله: «ومن أفتى الناس بمجرد المنقول في الكتب على اختلاف عُرفهم وعوائدهم وأزمنتهم وأمكنتهم وأحوالهم وقرائن أحوالهم فقد ضل وأضل، وكانت جنايته على الدين أعظم من جناية من طَبَّبَ الناس كلهم على اختلاف بلادهم وعوائدهم وأزمنتهم وطبائعهم بما في كتاب من كتب الطب على أبدانهم، بل هذا الطبيب الجاهل وهذا المفتي الجاهل أضَرُّ ما على أديان الناس وأبدانهم واللَّه المستعان»[٦].

بل جعله الإمام القرافي مخالفًا للإجماع وإغلاقًا لما هو دون باب الاجتهاد، فقال رحمه الله: «إجراء الأحكام التي مُدرَكُها العوائدُ مع تغيُّر تلك العوائد: خلافُ الإجماع وجهالةٌ في الدّين، بل كل ما هو في

(١) تشنيف المسامع بجمع الجوامع، للزركشي (٥٣/٣).
(٢) علم أصول الفقه، لعبد الوهاب خلاف، ص (٩١).
(٣) يُنظر: البحر المحيط للزركشي (١١٩/١).
(٤) البحر المحيط في أصول الفقه، للزركشي (٢٢٠/١).
(٥) مقاصد الشريعة الإسلامية، لابن عاشور (٢٧٤/٣).
(٦) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم (٤٧٠/٤).

قاعدة تغير الأحكام

الشريعة يتبع العوائد: يَتغيَّرُ الحكمُ فيه عند تغيُّرِ العادة إلى ما تقتضيه العادة المتجددة، وليس هذا تجديدًا للاجتهاد من المقلِّدين حتى يُشترَطَ فيه أهليةُ الاجتهاد، بل هذه قاعدةٌ اجتهدَ فيها العلماء وأجمعوا عليها، فنحن نَتْبَعُهم فيها من غيرِ استئنافِ اجتهاد»[1].

ومن يسر الشريعة تغير أحكامها بتغير الأحوال، وأما الإفتاء على وتيرة واحدة دون مراعاة لاختلاف الوقائع ففيه تكليف للناس بالعسر والمشقة.

> **العمل بقاعدة تغيّر الفتوى بتغيّر الزمان والمكان مجمع عليه بين أهل العلم، لكن لا يحسنه إلا المتمكنون من أهل العلم والفقه بالواقع، من المتأهّلين الذين لديهم الإحاطة بالأدلة الشرعية ومقاصدها الكلية ومعانيها المَرعية**

خاتمة:

في الشريعة أحكامٌ ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان والعادات والأحوال وهي الأصل فيها، وفيها أحكام مستندها الاجتهاد في النصوص وفي تحقق العلة التي يدور عليها الحكم، وبالتالي فإنّ هذه الأحكام قد تتغير بتغير الزمان والمكان والعادات والأحوال.

والعمل بقاعدة تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان مجمع عليه بين أهل العلم، لكن لا يحسنه إلا المتمكنون من أهل العلم والفقه بالواقع، من المتأهلين الذين لديهم الإحاطة بالأدلة الشرعية ومقاصدها الكلية ومعانيها المَرعية، كي تستعمل في موطنها الصحيح بلا إفراط ولا تفريط، ولا يقع فيها توسع غير مرضي، يؤدي إلى إحداث فتاوى شاذة، كإباحة بعض صور الربا، والمناداة بإيقاف تنفيذ الحدود وغير ذلك[2].

وإعمالها فيه قيام بأمر الدين، ومراعاة التيسير ورفع المشقة التي جاءت به الشريعة، قال ابن قيم الجوزية رحمه الله: «الفتوى تتغيَّر بتغير الزمان والمكان والعوائد والأحوال وذلك كله من دين اللَّه»[3].

(١) الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، للقرافي، ص (٢١٨).
(٢) يُنظر بحث الشذوذ في الفتوى المعاصرة الناتج عن التطبيق الخاطئ لقاعدة «تغير الفتوى لتغير الزمان» للدكتور عارف الجناحي.
(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم (١١٤/٦).

تزكية

غربة الروح

د.أسامة الصالح (*)

عندما تنضج الأفكار تتحوَّل إلى معتقدات راسخة، وتبقى واضحة ما دامت منابعها صافية نقية، ومتى تلوث النبع تغلّب الهوى ومرضت الروح بالفتن، وعلاج الروح يستلزم الرعاية المستمرة والعقيدة الراسخة والهمة العالية.

تتصارع الإنسان منذ مراحل تكوينه الأولى أمواج متلاطمة من الأفكار تأخذه يمنة ويسرة، وهذه الأمواج هي حصيلة ما قرأه وسمعه، ونتاج ما درسه وتعلمه، وما استقاه من بيئته ومجتمعه. وغالبًا ما يكون للموروث الديني والحضاري أثر عميق في هذه الأفكار، كما تحاول جهات عدة وأطراف متنازعة عن حسن نية أو عن سوئها أن يكون لها بصمة واضحة في نتاج هذه الأفكار.

وفي النهاية تصل هذه الأفكار إلى درجة من النّضج والوضوح، فتتحول إلى معتقدات راسخة، واضحة المعالم، تكوّن شخصيةَ الإنسان الروحية، وترسم ملامح مستقبله، وتستشرف مآلاته.

العقيدة السليمة أساس الثبات الفكري:

كلّما كانت الأفكار والمعتقدات نتاجَ قضيةٍ عادلةٍ مُنصفةٍ يؤيدُها وحيٌ من الله ورسالاته كان الاعتقاد بها أصلبَ وأعمقَ فتتحول إلى قضية حياة، بل جوهرًا للحياة وهدفها السامي، فترى الإنسان يدافع عن معتقداته الحقة ولو كلفته الروحَ والمالَ والجهد.

وتبقى هذه الأفكار واضحةً في الذهن ما دامت منابعها الأولى صافيةً نقيةً، يُغَذّيها فهمٌ سليمٌ للأهداف والمبادئ وتطبيقٌ واعٍ للتشريعات والواجبات، ومتى ما تلوث هذا النبع أو تكدرت مياهُه غابت الرؤية وعم الجهل.

> **«ومتى رأيت القلبَ قد ترحّل عنه حبُّ الله والاستعداد للقائه، وحلّ فيه حبّ المخلوق، والرضا بالحياة الدنيا والطمأنينة بها، فاعلم أنّه قد خُسِفَ به»**
>
> ابن القيم رحمه الله

(*) طبيب وباحث سوري.

فالأفكار التي تتغذى من منابع شتى دون أن تستقصي أفضلَها وأصفاها، وتنفتحُ على كل فكرة صحيحة كانت أم باطلة، والإنسان الذي يأخذ دينَه من أي أحد سواء كان أهلًا لذلك أم لا، سيصل به المطاف حتمًا إلى عدم معرفة الصواب من الخطأ، وربما مال قلبُه للفتن ومال سمعُه للرُّوَيبِضات أو الرؤوس الجُهَّال فاستقى منهم دينَه ومعتقداتِه فأضاع نفسه ودينه ودنياه، فيقع فيما حذر منه ﷺ: (اتَّخذ النَّاسُ رؤوسًا جُهَّالاً، فسُئِلوا فأفتوا بغير علمٍ فضلُّوا وأضلُّوا)[1].

لذا قد ترى مَن كان بالأمس مدافعًا عن عقيدته ومبدئه، تراه اليوم تتقاذفه آراء شيطانية مسمومة، مِن فكرة غريبة قرأها في كتاب، أو تأويل شاذ لحديث سمعه من فلان، أو مقطع مرئي لمتفيهق. تراه اليوم وقد غلبه الهوى فاستولى حبّ الدنيا على قلبه، حتى صار يؤثر محابَّه على محابِّ الله ومرضاته، وغدا يتخلى عن أفكاره التي كان يعتقدها ويدافع عنها ويضحي من أجلها.

وقد يستمرّ به الهوان حتى يخسف بقلبه، كما قال ابن القيم رحمه الله: «ومتى رأيت القلبَ قد ترحّل عنه حبُّ الله والاستعداد للقائه، وحلّ فيه حبّ المخلوق، والرضا بالحياة الدنيا والطمأنينة بها، فاعلم أنّه قد خُسِفَ به»[2]. فتبدأ هنا غربة الروح التي تنتهي حكمًا بخلخة إيمان الأمة ونزع الخيريّة منها.

> **إنَّ من يقع في الفتنة تخِفُّ تقواه، ويرِقُّ دينُه، ويُقارف المعاصي والآثام، فيزيده قبحُ المعاصي قبحًا آخر؛ إذ إن للمعاصي مِن الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله**

حماية الروح:

الروح، يا صاحبي، تمرض وتحزن وتشيب وتتغرب، وقد تشفى، فمتى بدأ مرضها فعلاجها أصعب من علاج الجسد الذي تسكنه، فترى الجسدَ ينكر هذه الروح ولا يعرفها، ففيما أخرجه الإمام مسلم من حديث حذيفة بن اليمان ﷺ قال: سمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: (تُعْرَضُ الفتنُ على القلوب كالحَصيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قلبٍ أُشرِبَها نُكِتَ فيه نُكتةٌ سوداء، وأيُّ قلب أنكرَها نُكِتَ فيه نُكتةٌ بيضاء، حتى تصيرَ على قلبين؛ على أبيضَ مِثلِ الصّفا فلا تضره فتنةٌ ما دامت السموات والأرض، والآخرُ أسودُ مُرْبادًّا؛ كالكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يَعرفُ مَعروفًا، ولا يُنكِرُ مُنكرًا، إلا ما أُشْرِبَ مِن هواه)[3].

ويكأنّي بهذا الشاب بعد سنين مِن غربة روحه جالسًا يتأمل في حياته وأفكاره بعد أن لعبت بها الآراء والأهواء، فلا المعتقدات هي، ولا المبادئ بقيت، ولم تعد لهذه الحياة لذة أو طعم. يحاول جاهدًا أن يُغري نفسَه بمتاع الدنيا وزهرتها، ويُبرر لأفكاره الجديدة ما يرضي به فؤادَه، ويُسَكِّنُ به نفسَه، لكن دونما جدوى، فقد نُزِعَت مِن روحه تلك القيمُ التي كانت تجعل للحياة معنىً وطعمًا، فقد كانت الأهداف عظيمة، كان يبتغي منها رضى الله جلّ وعلا، قبل أن يرضى بها عن نفسه.

الخسران كله، عندما يبقى هذا الشاب متعرضًا للفتن والظنون، لا يستتر منها أو يبتعد عنها، فتورده المهالك. إلى أن يصل لمرحلة ينكر بها أفكارَه الأولى ويحقرها وقد يهاجمها {فَتَزِلَّ قدمٌ بعدَ ثُبوتها}. ولذلك حين يُبعَد أناس عن الحوض كان يظنهم رسول الله ﷺ من أمته، يُجاب: (لا تدري، مَشَوا على القَهقَرى)[4].

إن الواقع في الفتنة تخِفُّ تقواه، ويرِقُّ دينُه، ويُقارف المعاصي والآثام، فيزيده قبحُ المعاصي قبحًا آخر؛ إذ إن للمعاصي كما ذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» مِن الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله، تبدأ بحرمان العلم والرزق والطاعة ولا تنتهي بظلمة القلب ووحشته، يقول ابن عباس ﷺ: «إنَّ للحسنة ضياءً في الوجه ونورًا في القلب وسعةً في الرزق وقوةً في البدن ومحبةً في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادًا في الوجه وظلمةً في القبر والقلب ووهنًا في البدن ونقصًا في الرزق وبُغضةً في قلوب الخَلق»[5].

(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).
(٢) بدائع الفوائد، لابن القيم (٣/٢٢٤).
(٣) أخرجه مسلم (١٤٤).
(٤) أخرجه البخاري (٧٠٤٨).
(٥) ينظر: الجواب الكافي، لابن القيم (٥٢) وما بعدها.

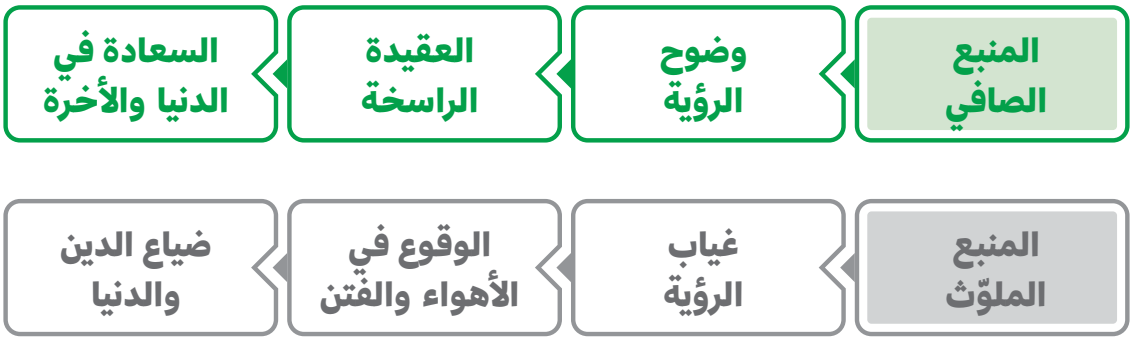

فإن كان هذا هو الحال فلن يدرك عميقَ خطئه إلا عند الموت أو سكراته، فالإنسان يبدأ بالتخلي عن بعض أفكاره وأهوائه عندما يشعر بدنو أجله، فقُرب الأجل يكشف الستار عن تلك الأفكار التي طالما حاول أن يدفنها في غياهب النسيان.

رعاية مستمرة:

حتى لا يصلَ الشابُ لهذه الحال، فإنّ المهمة ثقيلة وصعبة، صحيح أنّ تكوين الأفكار الصحيحة هي اللبنة الأولى لصقل شخصية الإنسان، لكن الحفاظَ عليها وتعزيزَها هي المهمةُ الأصعبُ والأدقُّ. فلا يكفي أبدًا أن يؤمن الإنسان بفكرةٍ ما، بل عليه أن يسعى إلى تعزيزِها، وتأطيرِها، وصَقلِها، ثم العمل بها لتكون مشروع حياة.

فكم مِن شاب صالح واعٍ كان قدوةً ومنارة لجيله وأقرانه، تغرّبت عنه روحُه فأنكرها وأنكرناه، ثم فقدناه من بيننا فخسرته الأمّة وخسره المجتمع، فالأمّة بشبابها، فإن لم يحملوا همومَها وآلامها بقيت متخبطة تخرج من واد لتسقط في واد، تسير في الظلمات ولا تهتدي ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

فإلى الذين تغرّبت أرواحُهم أو تكاد: إن الأفكار العظيمة تصنع أناسًا عظامًا ذوي همم عالية، ومتى ما تغيّرت هذه الأفكار، أو اندثرت، تلاشت قيمةُ الإنسان في عينه وفي أعين الناس، وإنَّ مُتَعَ الدنيا كلّها لن تعوضه عن لحظةِ صدقٍ مع الذات، لحظة صدق تجعل للمرء معنى لوجوده ومعنى لذاته، فيتحمل في سبيلها المتاعب والصعاب محتسبًا راضيًا رغم علمه بصعوبة ما يحمله وصعوبة الصبر عليه، وكما ورد عن النبيّ ﷺ فيما رواه أنس بن مالك ﷺ: (يَأْتِي على النَّاسِ زَمَانٌ الصابرُ فيهم على دينِهِ كالقَابِضِ على الجَمر)[1].

فتعال أُخيّ نصحّح مسارنا، نرسخ عقائدنا، نصفي أرواحَنا ونوايانا، ثمّ نمضي قُدُمًا لأمر قد كتبه الله علينا، ونعاهد الله جل في علاه أن نسير على درب الحق والهداية إلى أن نلقاه وهو راضٍ عنا، متمثلين كلام النبي الكريم ﷺ فيما أخرجه الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ حين قال: نادى منادي رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة، فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: (إنه لم يكن نبيٌّ قبلي إلا كان حقًا عليه أن يدُلَّ أمتَه على خير ما يعلمُه لهم، وينذرَهم شرَّ ما يعلمُه لهم، وإن أمتَكم هذه جُعِلَ عافيتُها في أولها، وسيصيبُ آخرَها بلاءٌ وأمورٌ تُنكرونها، وتجيءُ فتنةٌ فيرقق بعضُها بعضًا، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مُهلِكتي، ثم تنكشف، وتجيء الفتنةُ فيقول المؤمن: هذه هذه، فمن أحبَّ أن يُزحزَحَ عن النار، ويُدخَلَ الجنةَ، فلتأته مَنِيَّتُه وهو يؤمن بالله واليوم الآخر)[2].

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٦٠).
(٢) أخرجه مسلم (١٨٤٤).

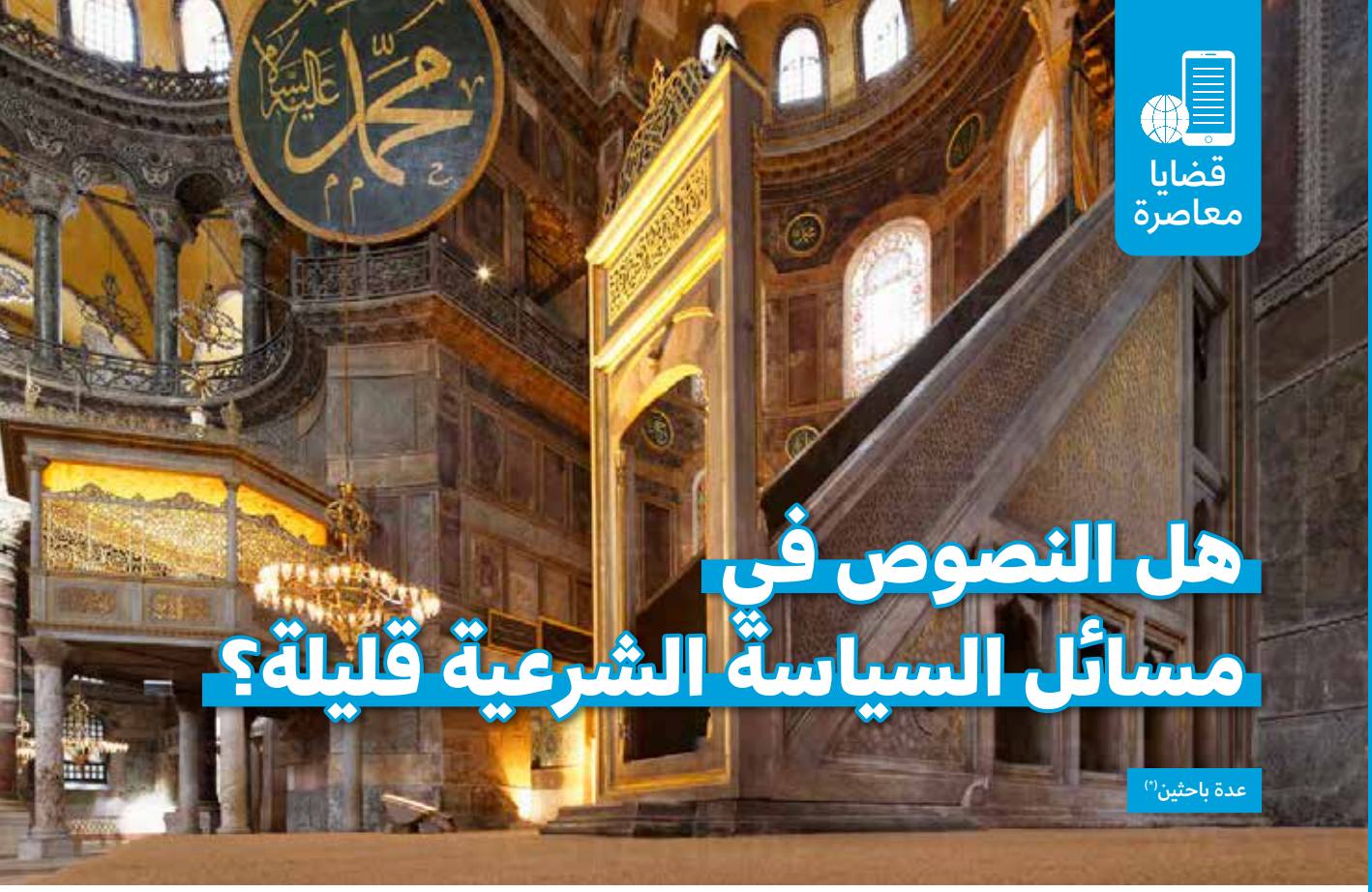

قضايا معاصرة

هل النصوص في مسائل السياسة الشرعية قليلة؟

عدة باحثين(*)

«قلّة النصوص في السياسة الشرعية» دعوى تنطوي على جهلٍ بالشريعة الإسلامية واتهام لها بالقصور، دعوى اتخذها من أراد الخروج عن شريعة الله ورسوله ذريعة لإدخال ما شاء في الدين بحجة قلة النصوص، وآخرون قصّروا في معرفة قدر الشريعة وجهلوا طبيعة أحكامها. فكيف يُردّ على هذه الدعوى ومن سار في ركابها؟

مدخل:

يُردد بعض من يخوض في مسائل السياسة الشرعية مقولات عن قلة النصوص في هذه المسائل، مفادها: «أنه لم يرد في الشريعة إلا القليل من النصوص التي تضبط الاتجاه العام والخطوط العريضة» فحسب، وأنها في غالب الأحيان «تصمت صمتًا مطبقًا في بعض الأمور المتغيرة» لذا فإننا «سنحصل على كثير من الآراء الظنية، وسنشعر أننا نقف على أرض هشة» في هذه القضايا، مما يولد «في إدارة الشأن الإنساني العام الكثير من الفراغات التي يتوجب على أهل كل زمان أن يملؤوها بما يتناسب مع أحوال زمانهم ومتطلباته، عبر عمليات اجتهادية متتابعة».

وهذه المقالة للإجابة عما سبق، وفي البداية لا بد من وضع أسسٍ للتعامل مع هذه العبارة:

أولًا: المقصود بالسياسة:

تُطلق السياسة ويقصد بها عدة أمور:

- فإن قُصد بالسياسة معناها العام، وهو رعاية شؤون العامة، فالسياسة بهذا المعنى تشمل معظم أبواب الشريعة، وبهذا المعنى فالنصوص فيها كثيرة جدًا.
- وإن كان المقصود بالسياسة: الأحكامُ السلطانية أو ما يسمى بأحكام الإمامة، وهذا المعنى هو الذي يقصده معظم مَن يطلق هذه المقولة، وربما يقصدون أدقّ مسألة من مسائلها وهي قضية اختيار الحاكم وعلاقته مع الرعية وصلاحياته ونحو ذلك، فالنصوص فيها وفيرة، وإن كانت أقلّ منها في غيرها.

(*) أعده للمجلة: الدكتور عماد الدين خيتي، والدكتور أيمن الهاروش، والشيخ فايز الصلاح.

بيان الأحكام الشرعية ليس مقصورًا على الآيات والأحاديث المباشرة المسوقة ابتداءً لبيان أحكام السياسة، بل طبيعة الشريعة الإسلامية أنّها تبيّنُ ما يحتاجه الناس من الأحكام بطرقٍ متعدّدةٍ من البيان

ثانيًا: المقصود بالنصوص:

وكما تحدّثنا عن مرادهم بالسياسة، يمكن أن نتحدّث عن مرادهم بالنصوص:

فعبارتهم تدلّ على أنّهم يعنون بالنصوص: «أدلة الكتاب والسنة المباشرة المسوقة ابتداءً لبيان أحكام السياسة»، وهذا اختزال لأدلة الشريعة الإسلامية؛ فإنّ بيان الأحكام الشرعية ليس مقصورًا على الآيات والأحاديث المباشرة بحيث يُقال عند عدم الوقوف على تلك الأدلة المباشرة: إنّ الشريعة لم تُبيّن هذه الأحكام؛ لذا ينبغي البحث عن مصادر أخرى!

بل طبيعة الشريعة الإسلامية أنّها تبيّنُ ما يحتاجه الناس من الأحكام بطرقٍ متعدّدةٍ من البيان، فقد تبيّنُ الحكمَ بمنطوق الدليل أو بمفهومه، سواء كان مِن قبيل مفهوم الموافقة أو المخالفة، وقد تبينُ الحكمَ بالعمومات، وقد تدلّ عليه بالتنبيه على العلّة عن طريق القياس، وقد تدلّ عليه باتفاق المجتهدين على الحكم، وقد تبيّنه بالقواعد والمصالح، وقد يكون ذلك بسنّة الخلفاء الراشدين وتطبيقاتهم التي وافقهم عليها سائر الصحابة.. وإذا نظرنا إلى أدلّة الشريعة بهذا الشمول نجد أنّ ادّعاء قلّة النصوص ليس في محلّه.

طبيعة السياسة الشرعية في الإسلام:

إنّ مدّعي قلّة النصوص في السياسة الشرعية خَفِيَ عليه معرفةُ موقع السياسة في ديننا، فالأحكام السياسية في الإسلام واسعة جدًا، وعامّة أحكام الدين لها تعلّق بالسياسة بطريقةٍ أو أخرى، والسياسةُ تجري منه مجرى الدم من الجسد: «نحن سياسيون منذ خُلقنا، لأننا مسلمون منذ نشأنا، وما الإسلام الصحيح بجميع مظاهره إلا السياسة في أشرف مظاهرها، وما المسلم الصحيح إلا المرشح الإلهي لتسيير دفّتها أو لترجيح كفّتها... نحن سياسيون طبعًا وجبلة، ونحن الذين أيقظنا الشعور بهذا الحق الإلَهي المسلوب، فما سار سائر في السياسة إلا على هُدانا، وما ارتفعت فيها صيحة إلا وكانت صدى مرددًا لصيحاتنا... نحن سياسيون لأن ديننا يعد السياسة جزءًا من العقيدة، ولأن زمننا يعتبر السياسة هي الحياة، ولأنها آية البطولة، ولأن وضعها يصير السياسة ألزم للحياة من الماء والهواء، ولأن السياسة نوع من الجهاد ونحن مجاهدون بالطبيعة فنحن سياسيون بالطبيعة»[1].

امتلأت السنة النبوية بأحكام السياسة الشرعية، فصنَّف المحدثون من شتى المذاهب كتبًا وأبوابًا في الجهاد، والقضاء، والإمارة وما شابه ذلك، ولهذه الكتب عشرات الشروح؛ فهي من مظانِّ السياسة الشرعية

والنصوص الشرعية من الكتاب والسنّة، وسيرة السلف الصالحين من الخلفاء والراشدين ومَن جاء بعدهم هي بالمئات.

وقد وردت نصوص كثيرة في الحكم، والتشريع، والرعية وحقوقها، والحاكم وحقوقه، والإمارة، والطاعة، والاستخلاف، والبيعة، والأمر بالعدل والمعروف والنهي عن الفحشاء والمنكر، وفي القضاء وأحكامه، وفي مسائل الحرب والسلم، وفي أحكام المعاملات المالية والأحوال الشخصية، وعلاقة الحاكم في ضبطها، وتقدير المصالح وتحصيلها، وتقديم الأعظم منها على الأقلّ منها، ودفع المفاسد ومنعها، ودفع المفسدة الكبرى بالمفسدة الصغرى، واعتبار المآلات، وغير ذلك من القواعد والجزئيات.

وبعد ذلك كله: فإنّ مَن آتاه الله علمًا وفهمًا يستطيع أن يستنبط كثيرًا من أحكام السياسة الشرعية من نصوص ليس ظاهرها في السياسة، كما هو مبسوط في كتب أهل العلم[2].

النصوص التي تتحدّث عن السياسة الشرعية:

هناك عشرات الآيات تتحدث عن السياسة الشرعية في ثنايا سور القرآن:

- ففي تدبير الدولة وسياسة الملك خاصةً في أوقات الأزمات الاقتصادية والتعامل مع المخالفين نجد الكثير منها في سورة يوسف.

(١) ينظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، أحمد طاهر الإبراهيمي، (٢٦٠/٤).

(٢) ينظر: فصل (في طريق استنباط الأحكام الشرعية)، من كتاب: المدخل إلى السياسة الشرعية، لعبد العال عطوة، ص (١٠٩) وما بعدها.

- وآيات الجهاد وأحكامه نجدها في سُوَرٍ كثيرة كالبقرة وآل عمران والنساء والحج ومحمد ﷺ وغيرها.
- وأحكام السلم والهدنة والأسرى نجدها في سورة الأنفال والتوبة وغيرها.
- وأحكام الدعوة إلى الإسلام قبل القتال وإرسال الرسل وصفة إرسالهم نجدها في سورة النمل.
- ونقرأ في إدارة الدولة أيام الفتن والاضطرابات في سورة الأحزاب، وفي الفتوحات والانتصارات في سورة الفتح.
- ونقرأ في أحكام البُغاة والردّة والخروج على الأمّة وموالاة أعدائها في سورة الحجرات والمائدة والممتحنة، وغير ذلك من العناوين.

هذا في الآيات الصريحة الدالّة على أحكام السياسة الشرعية. أمّا غير الصريحة فكلُّ القرآن هدايةٌ ودلالةٌ على أمور السياسة الشرعية، وقد فسّرها العلماء في كتب التفسير؛ التي أصبحت بهذا مرجعًا مهمًّا في باب السياسة الشرعية.

وأما السنّة فقد امتلأت بأحكام السياسة الشرعية، فصنَّف المحدثون من شتى المذاهب كتبًا وأبوابًا في الجهاد، والقضاء، والإمارة وما شابه ذلك، ولهذه الكتب عشرات الشروح؛ فهي من مظانِّ السياسة الشرعية.

بل إنّ السياسة الشرعية دخلت إلى كتب الاعتقاد فيما يتعلق بالجماعة والإمامة ونحوها.

كما أنّ سيرة النبي ﷺ كانت تطبيقًا عمليًا للسياسة الشرعية النبوية، ثم كانت سيرة الخلفاء الراشدين استمرارًا للعهد النبوي، حتى إنّ النبي ﷺ سمّاها بالخلافة على منهاج النبوة، وخاصة في عهد الوزيرين أبي بكر الصديق وعمر الفاروق رضي الله عنهما[1].

فالسياسة الشرعية تسري في مؤلفات عامة العلوم والفنون، وليس هذا وحسب، بل صُنفت مئات الكتب المفردة في هذا بعناوين متعددة: كالسّير، والأموال، والأحكام السلطانية، والسياسة الشرعية.

فالمسألة ليست في عدم وفرة النصوص، بل القدرة على فهم النصوص واستنباط الأحكام منها، وقبل ذلك في القناعة بكفاية الشريعة لما يحتاجه الناس في هذا الباب.

صدر الحكم على نصوص السياسة بالقِلَّة انطلاقًا من قَصْر مفهوم السياسة الشرعية على مسألة تعريف الحاكم وآلية اختياره ونحوها من المسائل التفصيلية، وهذا من الجهل بمفهوم السياسة الشرعية، وبطبيعة أحكام الشريعة الإسلامية

فالنصوص والأدلة الشرعية في موضوعات السياسة أكثر من أن تحصى، لكن لما قصر أصحاب هذه المقولة السياسة في آلية اختيار الحاكم، وفي بعض المسائل التفصيلية التي تتفرع عنه مثل تعريف الحاكم ومَن يختاره؟ وما آلية الاختيار؟ وهل يصح أن يكون الحاكم شخصية اعتبارية (حزب) فيكون الاختيار بين أحزاب بدلًا من أشخاص؟ وهل يمكن معارضته؟ وهل يجوز تقسيم سلطاته؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التفصيلية، وجلّ مسائلها من النوازل المعاصرة، فحصرُ مفهوم السياسة في هذه القضية، والبحثُ في النصوص عن أدلّة خاصّة بها، ثمّ الحكمُ -انطلاقًا من هذا الحصر- على نصوص السياسة بأنها قليلة وشحيحة، جهلٌ في أمرين: في مفهوم السياسة كما سبق، وفي مفهوم طبيعة أحكام الشريعة الإسلامية، فليست كلها نصوصًا جزئية خاصة.

ومثلهم في ذلك كمن نظر في المعاملات المالية المعاصرة من الأسهم والبورصات والأوراق المالية، ثم لم يجد أدلةً خاصّة فيها، فسوّغ لنفسه أن يقول: لا توجد نصوص اقتصادية أو هي شحيحة! وضرب -جهلًا- بعُرض الحائط مئات النصوص في البيوع والمعاملات والأموال التي تشكّل منظومة اقتصادية متكاملة.

إن قُصد بقلّة النصوص أنها لا تغطي كلَّ الأحكام الشرعية، فهذا طعنٌ في الدين أنه ناقص غير كامل، والله سبحانه وتعالى قد أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة

(١) عن حذيفة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: (اقتَدوا باللَّذينِ من بعدي، أبي بكر وعمر) أخرجه الترمذي (٣٦٦٢) وابن ماجه (٩٧) وأحمد (٢٣٢٤٥)، قال السندي في حاشيته على المسند: «فيه بيان قوة اجتهادهما وإصابتهما الحق غالبًا، وفيه إخبار عن خلافتهما».

ما المقصود بقلة النصوص في مسائل السياسة الشرعية؟

هذه العبارة مما تتناقله بعض الألسنة، وتحتاج لبيان:

- فإن قُصد بها أن النصوص لا تغطي كلَّ الأحكام الشرعية التي يحتاج إليها الناس في باب السياسة الشرعية فهذا طعنٌ في الدين أنه ناقص غير كامل، والله سبحانه وتعالى قد أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة كما قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وعن أبي ذرٍّ ﷺ قال: «لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يَتَقَلَّبُ في السماء طائِرٌ إلا ذَكَّرَنَا منه علمًا»[(١)]. والمعنى أنّه ما من شيء مما يتعلق بأمور الناس إلا وقد دلَّ عليه الدليل إما منطوقًا أو مفهومًا أو تنبيهًا ببيان العلّة، ومن ذلك أمور الحكم، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

والميزان وهو القياس الصحيح، فالدين قائمٌ على النقل القويم الصحيح والقياس الصريح.

> **العبادات والعقائد من الأمور التوقيفية التي يضيق فيها القياس والاجتهاد، فاحتاجت إلى نصوص أكثر تفصيلاً، بخلاف السياسة الشرعية التي هي توقيفية الأصول واجتهادية في كثيرٍ من التفاصيل**

- وإنْ قُصِد أنّ القلّة نسبية وذلك بالنظر إلى النصوص الأخرى الواردة في أبواب العقائد والعبادات فهذا حقٌّ، ولا يضرُّ؛ لأنَّ قلّة أو كثرة النصوص إنّما جاء لطبيعة المُبَين بتلك النصوص، وأبواب الشريعة متفاوتة في هذا الأمر.

فالعبادات والعقائد من الأمور التوقيفية التي يضيق فيها القياس والاجتهاد، فاحتاجت إلى نصوصٍ أكثر تفصيلًا، بخلاف السياسة الشرعية التي هي توقيفية الأصول واجتهادية في كثيرٍ من التفاصيل.

فالقلّة في نصوص السياسة الشرعية نسبية مقارنة بأقرانها من أبواب الفقه، وليست قليلة بذاتها كما يصوّرها البعض حتى إنّه يكاد يصوّرها شبه معدومة، وأنّه يملك مطلق الحرية في الاجتهاد دون قيود تحدّ اجتهاده[(٢)].

> **لِقصور الفهم الحاصل عند العديد ممن يتناول مسائل السياسة الشرعية يظنّ أنّها لا تحوي أحكامًا، فيحيل هذا القصور على النصوص ويدّعي قلّتها أو أنّها لا تفي بالغرض**

فالكتاب والسنّة وآثار السلف من الأقوال والأفعال فيها من التفصيل الكثير، وتبقى دائرة الاجتهادات في السياسة الشرعية واسعة؛ لأنّها من باب التعامل مع الخلق، بخلاف العبادات التي تمحّضت للخالق فيكثر فيها التفصيل؛ فهي مبنية على التوقيف في تفصيلاتها بخلاف السياسة فهي توقيفية اجتهادية.

فالسياسة الشرعية: توقيفيةٌ اجتهاديةٌ، والتوقيفي منها يقوم على التأصيل وبعض التفصيل، ورُبَّ تأصيلٍ يفوق ألفَ تفصيل، وهناك مساحة اجتهادية، لأنَّ النوازلَ كثيرةٌ، ومن ثَمَّ يكون القول بأنّها قليلةٌ ليس له حظٌّ في مجال التحقيق العلمي.

أهمّية فهم النصوص الشرعية في أبواب السياسة الشرعية:

ليست العبرة بقلة النصوص أو كثرتها، وإنما العبرة بفقهها والقدرة على استنباط الأحكام منها؛ فمن أُوتي فهمًا صحيحًا ومنهجًا سليمًا سيتوصّل لاستنباط الأحكام الكثيرة منها، وبتفاوت الأفهام والقدرات يتفاوت الاستنباط، والنّاس متفاوتون في الأفهام، قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] ففهّمها سليمان عليه السلام ولم

(١) أخرجه أحمد (٣٤٦/٣٥) برقم (٢١٤٣٩)، وقال محققو المسند: حديث حسن.

(٢) في المقابل يلحظ كثرة النصوص التي تتناول التعامل مع الحاكم في مختلف أحواله، من السمع والطاعة في المعروف، والنصح وتقديم المشورة، والإنكار عليه، والاستقلال عنه في الفتوى والقضاء، وتجنب العلماء لأبواب السلاطين، إلى أن تصل إلى أحكام العزل ونزع اليد من الطاعة، وهي كثرةً لا تُنكر. ولعل الحكمة من هذا والله أعلم: أن الحاكم كيفما تولى، سواء بالشورى أو بالانتخاب، أو بالوراثة وولاية العهد، أو بقوة السيف والتغلب؛ فلا يتوقف الأمر عند ذلك، إذ المهم كيفية تعامل الأمة معه، وكيفية إعانته على الحق، ومنعه من الظلم، وأن تعرف متى تناصره وتؤيده ومتى تقف بوجهه، وبهذا لا تضيع الأمة بحاكم يعلو وآخر ينزل، بل يحفظها الربانيون من أهل العلم بأمانة الكلمة وتحمل تبعاتها، في ضمانة فريدة لم توجد في أي دين أو نظام قديمًا وحديثًا.

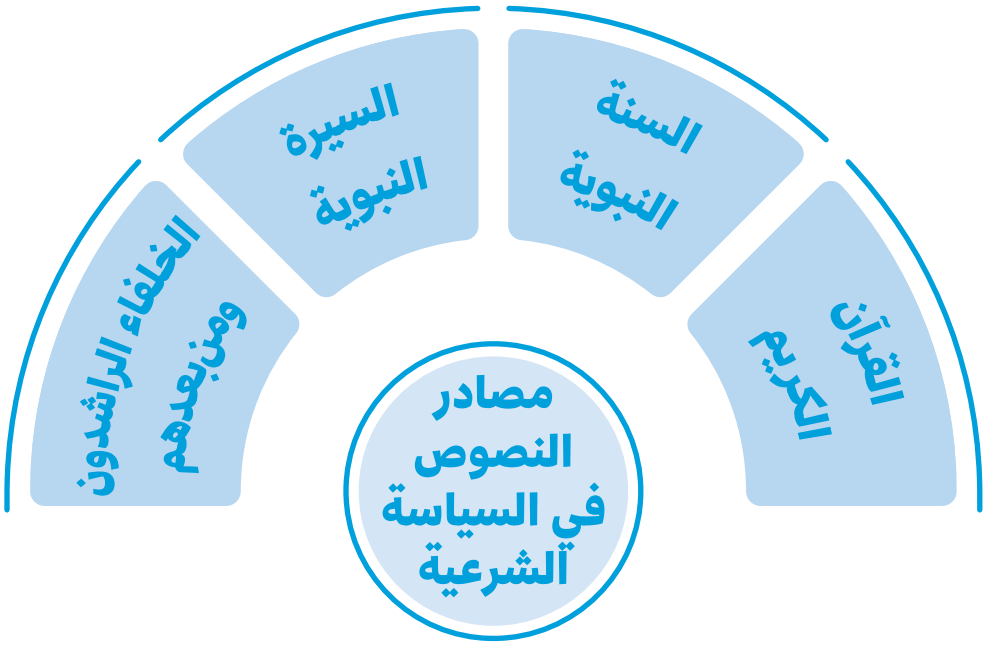

يفهّمها غيره، وكذلك لما قيل لعلي ﷺ: «هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟» قال: «لا، والذي فَلَقَ الحبَّةَ، وبَرَأَ النَّسَمَةَ، إلا فَهمٌ يُعطيه الله رجلًا في القرآن، وما في هذه الصحيفة»، قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: «العَقلُ، وفَكاكُ الأسِير، وأن لا يُقتل مسلم بكافر»(١).

فلِقصور الفهم الحاصل عند العديد ممن يتناول مسائل السياسة الشرعية يظنّ أنّها لا تحوي أحكامًا، فيحيل هذا القصور على النصوص ويدّعي قلّتها أو أنّها لا تفي بالغرض.

دلالة التاريخ على وفرة النصوص الشرعية:

يشهد لما سبق تقريره من بطلان القول بقلّة النصوص في مسائل السياسة الشرعية: قيام الدولة الإسلامية واستمرارها منذ عهد النبوة إلى سقوط الدولة العثمانية على مدى ألف وأربع مئة سنة، ومع أنّه قد اعترى هذه الدولة نقصٌ في بعض الجوانب ولا سيما بعد الخلافة الراشدة، إلّا أنّ قيامها طيلة هذه القرون دليلٌ على أنّها كانت تحقّق وعد الله بالاستخلاف والتمكين: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥].

وخلال هذه القرون الطويلة تغيّرت ظروف الناس وأحوالهم وتبدّلت كثيرًا، ومع ذلك فقد استطاعت هذه الدُّول البقاء ومواكبة الحياة وتطوراتها البشرية والعلمية والحضارية، وهي في جميع ذلك تجد في نصوص الشريعة ما يُسعفها ويُعينها، ويجدُ عُلماؤها وحكّامها فيها غايتهم نصًّا أو اجتهادًا دون قصور أو ضعف.

فلو تأملنا طريقة الحكم وأنظمته: الإدارية والعسكرية والمالية والتعليمية ونحوها، كيف تطوّر من خلافة الصدّيق إلى سقوط الخلافة العثمانية، فسنكون أمام احتمالين لا ثالث لهما، إمّا أنّ الدولة الإسلامية تمكّنت من خلال قادتها وفقهائها وخبرائها من فهم النصوص والاجتهاد فيها بما حقّق لها هذا التطوّر والبقاء والتقدّم الحضاري بكلّ أشكاله، والاستفادة من شتى العلوم والخبرات من مختلف الأجناس.

وإمّا أنّها تركت نصوص الشريعة لقلّتها وقصورها وشحّها في الجوانب الإدارية والسياسة والعسكرية والمالية، والسياسية على وجه الخصوص –كما يدّعي هؤلاء– وذهبت تستورد نُظُمًا وطرقَ حكم من هنا وهناك، أو تجتهد في إدارة شؤونها بما تراه دون ضابط شرعي لها!

(١) أخرجه البخاري (٦/٢٥٣٤) برقم (٦٥١٧).

ولا يمكن لقائل أن يقول بالثاني، لأنّه يعني حينئذ إخراج هذه الدول عن وصفها بالإسلامية التي تعتمد الشريعة مرجعًا لها، ولأنّه لم يحصل في الحقيقة والواقع.

فكيف وَسِعت نصوص الشريعة الأمّة أربعة عشر قرنًا، واستطاعت من خلالها تقديم أروع وأفضل حضارة بشرية في التاريخ، ولا تسع الأمّة اليوم؟ إنّ المشكلة الحقيقة ليست في شحّ النصوص بل شحّ أرباب الحِجا والعلم الذين يستنبطون من النصوص كما استنبط الذين مِن قبلهم ما يرفع شأن الأمّة.

قلّة النصوص.. دعوى قديمة:

على الرغم من أنّ دعوى قلّة النصوص في باب السياسة خاصّة هي دعوى حديثة، إلا أنّه قد سبقتها دعوى قديمة في قلّة النصوص في عامّة الأحكام الشرعية، فقد سئل ابن تيمية رحمه الله عمن يقول: إن النصوص لا تَفِي بعشر مِعشارِ الشريعة: هل قوله صواب؟

فأجاب رحمه الله جوابًا طويلًا يحسن الرجوع إليه، جاء فيه: «الصواب الذي عليه جمهور أئمة المسلمين أنّ النصوص وافيةٌ بجمهور أحكام أفعال العباد، ومنهم مَن يقول: إنّها وافيةٌ بجميع ذلك؛ وإنّما أنكر ذلك مَن أنكره لأنّه لم يفهم معاني النصوص العامّة التي هي أقوال الله ورسوله وشمولها لأحكام أفعال العباد، وذلك أنّ الله بعث محمدًا ﷺ بجوامع الكلم فيتكلم بالكلمة الجامعة العامّة التي هي قضية كلية وقاعدة عامّة تتناول أنواعًا كثيرة، وتلك الأنواع تتناول أعيانًا لا تُحصى، فبهذا الوجه تكون النصوص محيطة بأحكام أفعال العباد...»[1].

> **«من ظنّ أن الشريعة ناقصة تحتاج إلى سياسة خارجة عنها تكمّلها كَمَن ظنَّ أنّ بالناس حاجة إلى رسول آخر بعده، وسبب هذا كله خفاءُ ما جاء به على مَن ظنّ ذلك، وقلّة نصيبه من الفهم الذي وَفّق اللّه له أصحاب نبيه ﷺ ورضي عنهم»**
>
> ابن القيم رحمه الله

وقد صنَّفَ شيخُ الإسلام رسالة بعنوان: «قاعدة في شمول النصوص للأحكام» بيَّن هذا الأمر، وردَّ على المخالفين، وهي مطبوعة في المجموعة الثانية من جامع المسائل.

وعندما أحدث بعض الولاة بعض السياسات الظالمة؛ لظنّهم الفاسد أنّ الشريعة قاصرة عن تغطية النوازل ردّ عليهم أهل العلم وبيّنوا خطأهم في ذلك، قال ابن القيم رحمه الله: «وقد توفي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وما طائر يقلِّب جناحيه في السماء إلا ذَكَر للأمة منه علمًا، وعلمهم كل شيء... وبالجملة فجاءهم بخير الدنيا والآخرة برُمَّته، ولم يُحوجهم اللّه إلى أحد سواه، فكيف يُظنُّ أنّ شريعته الكاملة التي ما طرق العالمَ شريعةٌ أكمل منها: ناقصةٌ تحتاج إلى سياسة خارجة عنها تُكمّلها، أو إلى قياس أو حقيقة أو معقول خارج عنها؟

ومن ظنّ ذلك فهو كَمَن ظنَّ أنّ بالناس حاجة إلى رسول آخر بعده، وسبب هذا كله خفاءُ ما جاء به على مَن ظنّ ذلك، وقلّة نصيبه من الفهم الذي وَفَّق اللّه له أصحاب نبيه ﷺ ورضي عنهم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧] وكيف يُشفي ما في الصدور كتابٌ لا يفي هو وما تُبيّنه السنّة بعُشر معشار الشريعة؟

ويا للّهِ العجبُ كيف كان الصحابة رضي الله عنهم والتابعون قبل وضع هذه القوانين التي أتى الله بُنيانها من القواعد وقبل استخراج هذه الآراء والمقاييس والأوضاع؟ هل كانوا مهتدين مكتفين بالنصوص أم كانوا على خلاف ذلك؟ حتى جاء المتأخرون فكانوا أعلم منهم وأهدى وأضبط للشريعة منهم وأعلم بالله وأسمائه وصفاته، وما يجب له، وما يمتنع عليه منهم؟ فوالله لَأَنْ يَلقى اللهَ عبدُه بكلّ ذنب ما خلا الإشراك خيرٌ من أن يلقاه بهذا الظن الفاسد والاعتقاد الباطل»[2].

وقال ابن تيمية رحمه الله: «والتحقيق أنّ الشريعة التي بعث الله بها محمدًا ﷺ جامعة لمصالح الدنيا والآخرة، وهذه الأشياء ما خالف الشريعة منها فهو باطل، وما وافقها منها فهو حقّ؛ لكن قد يُغَيّرُ أيضًا لفظ الشريعة عند أكثر الناس؛ فالملوك والعامّة عندهم أنّ الشرع والشريعة

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٢٨٠/١٩).
(٢) إعلام الموقعين، لابن القيم (٢٨٦/٤).

اسم لحُكم الحاكم، ومعلومٌ أنّ القضاء فرع من فروع الشريعة، وإلا فالشريعة جامعة لكلّ ولاية وعمل فيه صلاح الدين والدنيا، والشريعة إنما هي كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه سلف الأمة في العقائد والأحوال والعبادات والأعمال والسياسات والأحكام والولايات والعطيات...

وهذه جملة تفصيلها يطول، غلط فيها صنفان من الناس:

- صنفٌ سوّغوا لنفوسهم الخروج عن شريعة الله ورسوله وطاعة الله ورسوله؛ لظنّهم قصورَ الشريعة عن تمام مصالحهم جهلًا منهم، أو جهلًا وهوى، أو هوىً محضًا.
- وصنفٌ قَصَّروا في معرفة قدر الشريعة؛ فضيّقوها حتى توهّموا هم والنّاس أنّه لا يمكن العمل بها، وأصل ذلك الجهل بمسمى الشريعة ومعرفة قدرها وسعتها، والله أعلم»[1].

فما بال النصوص الأخرى؟

من اللافت أن نجد القائلين بقلة النصوص في أبواب السياسة الشرعية في المسائل التي وردت فيها نصوص شرعية قاطعة، وافق عليها أهل العلم عبر العصور؛ نجدهم رافضين لما دلت عليه النصوص الشرعية من أحكام، تارة بذريعة التجديد، وتارة بذريعة المقاصد، وأخرى بدعوى ظنية دلالة النصوص، ونحوها، كمسائل أحكام غير المسلمين في الدولة المسلمة (أهل الذمة)، وولاية المرأة، ونحوها.

فحين وُجدت النصوص لم يأخذوا بها! مما يلقي مزيدًا من الضوء على حقيقة دعوى قلة النصوص الشرعية، والهدف منها[2].

وختامًا:

فإنّ من رحمة الله وعدله وحكمته أنْ جعل نصوص السياسة الشرعية متناسبة مع مجالها؛ لتسير عَجَلة التشريع بمرونة وحيوية، وإنّ الاجتهاد اليوم هو الوسيلة لتقديم الحلول المناسبة لمستجدّات الدولة والسياسة في عصرنا، لا هجر الشريعة تحت ذريعة الظنّ الواهم بقصور نصوصها.

وحين تأتي الدعوة للاجتهاد، فمن نافلة القول أنّ المقصود به الاجتهاد الصادر مِن أهله وبضوابطه، وليس الاجتهاد الذي يتسوّر عتباتِه مَن لا يعرف مبادئ العلوم الشرعية، فهذا مِن شأنه أن يأتي بشريعة وسياسة ما أنزل الله بها من سلطان، كما هو حال كثير ممن يزعمون العمل السياسي الإسلامي، ولا يقال لمثلهم: اجتهد فأخطأ فله أجر، بل يقال: أخطأ فاجتهد وعليه وزر.

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٩/٣٠٧ -٣١٠).
(٢) ينظر: أغلوطة المثقفين حول النظام السياسي في الإسلام، د. معن عبد القادر.

نظرات نقدية

ظاهرة علماء السلطان في الميزان

د. ياسين محمد علوش

ظاهرة «علماء السَّلاطين» من أسباب تمكين الظَّلمة وتخلُّف الأمة، ومع أنَّ ظهورها قديم إلا أنَّ أثرها الكبير قد استفحل في هذا العصر بما لم يكن سابقًا، وللحدِّ من هذه الظاهرة لا بد من التَّعرف على تموضعها في بُنيان الطغيان، وبيان أسبابها وآثارها السلبية على الأمّة، لنستنبط من معرفتنا تلك أهم الآليات للحدِّ من ظهورها.

مدخل:

لا شكَّ أن شرفَ العلم لا يعلوه شرف، وأنَّ مكانة العالِم لا يعلوها مكانة، وقد ذكر ذلك الحقُّ سبحانه وتعالى حيث قال: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال رسول الله ﷺ: (فضلُ العالِم على العابد كَفَضلي على أدناكُم)[1].

إلا أنَّ هذا الشرف قد يَضيع، وهذه المكانة قد تهوي -والعياذ بالله- إذا ابتغى العالم بعِلمِه هذا غيرَ وجهِ الله تعالى، أو جعل مِن عِلمِه هذا وسيلةً للحصول على المكاسب الدنيوية الزائلة، كالمال والجاه وغيرهما، وهذا ما يفعله علماء السلاطين.

والمقصود بعلماء السلاطين: فئة من علماء الدِّين جعلوا مِن أنفسهم مطيَّة للحاكم الظَّالم، يُعطونه الشرعية لحُكمه الظالم هذا، ويمنحونه الفتوى التي يريد، في الوقت الذي يريد.

هل هي ظاهرة حديثة؟

إنَّ ظاهرة علماء السلطان ليست حديثة، ولا وليدة هذا الزّمان، بل هي قديمة قِدَمَ التّاريخ،

(*) دكتوراه في الفقه المقارن، مدرس في جامعة إدلب.

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥).

كما أنّها ليست حكرًا على هذه الأمة، بل موجودة في جميع الأمم، لأنّ علماء السلاطين - في كلّ زمانٍ ومكانٍ - هم ركنٌ أساسٌ من الأركان التي يقومُ عليها الطُّغيان، إذ كلّ طاغيةٍ ومستبدٍ يقوم حُكمه على أركانٍ خمسةٍ:[1]

- فالركن الأول: هو القائد الرَّمز الذي ليس له مثيل!.
- والثاني: الجيش القوي الضارب والقبضة الحديدية.
- والثالث: الذراع الاقتصادي الذي يعتمد عليه ويتحكم به هذا القائد.
- والرابع: الفريق الإعلامي الذي يُلمّع هذا الحاكم ويُزَيِّنُه.
- والخامس: المرجعية الدينية التي تعطي الشرعية لهذا الحاكم في حكمه وتصرفاته.

وأوضحُ مثال يمكن أن يُذكر في هذا المقام: دولة فرعون التي تتمثل هذه الأركان الخمسة؛ ففرعون هو القائد الرمز الذي لا يخطئ، وجيشه هو القوة الضاربة، وقارون يمثل قوته الاقتصادية، والسَّحَرة -قبل إيمانهم- هم المرجعية الدينية، والحاشرون الذين قالوا للناس: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٣٩-٤٠] هم ذراعه الإعلامية.

أما الكهنة والرُّهبان فقد تسلّطوا على العباد واستعبدوهم، ومَكَّنوا للحاكم المُستبدّ، وإن لم يذكرهم القرآن الكريم على سبيل الخصوص، إلا أنّ هذا الدور للكهنة والرهبان كان شائعًا في الأمم السابقة. قال تعالى فيهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

> **لم تسلم مدرسةٌ ولا تيارٌ من ظاهرة علماء السلاطين، ولم ينجُ منها الأكاديميون ولا التقليديون ولا المستقلون، ولم يخلُ منها زمان ولا مكان.**

واللافت في زماننا هذا أنّ ظاهرة علماء السلاطين انتشرت أكثر من المعتاد، وزاد الأمر وتفشّى، فالنظر في بلاد المسلمين -إلا ما رحم الله- يكشف عن اتخاذ حُكامها «جَوقةً» من العلماء الذين يُسبِّحون بحمدهم ليلَ نهار، يحبون إذا أحبَّ، ويكرهون إذا كره، يوالون مَن وَالَى، ويعادون مَن عادى. وقد زاد اهتمام الناس بهم والتعرف عليهم بسبب وسائل الإعلام سواء الموالية التي تظهر نفاقهم، أو المعادية التي تنشر فضائحهم.

كما أنَّ اللافت أيضًا أنَّ هذه الظاهرة المَقِيتة لا تكاد تسلم منها مدرسةٌ ولا تيارٌ، ولم ينجُ منها الأكاديميون ولا التقليديون ولا المستقلون، نسأل الله العفوَ والعافية.

أسباب انتشار ظاهرة علماء السلطان:

أسباب انتشار هذه الظاهرة عديدة متضافرة، ولعل معظمها أمور متعلقة بالشخص ذاته:

السبب الأول: الخَلل في التربية والتنشئة؛ فلعل بعض المدارس الدينية والمعاهد والجامعات الشرعية لم تُفلح في غرس القيم والمبادئ التي تصون العالِم حين تُسوِّدُه، وتحفظه من الانزلاق في مثل هذه المزالق الخطيرة، فكان تركيز هذه المؤسسات منصبًّا على حشو المعلومات في أذهان الطلاب دون الانتباه إلى الجانب القِيَميّ والأخلاقي الذي يحتاجه هذا الطالب في مستقبل حياته ليكون عالمًا ربّانيًا؛ فالعلماء الربانيون لا يمكن أن يكونوا علماءَ سلاطين، لأنهم لا يخافون بأسَهم، ولا تُغريهم أموالُهم ولا وظائفُهم ومناصبُهم. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: «فالجَهَلةُ مِن الأحبار والرهبان ومشايخ الضَّلال يَدخلون في هذا الذمِّ والتوبيخ، بخلاف الرسل وأتباعهم مِن العلماء العاملين، فإنما يأمرون بما أمر الله به وبلغتهم إياه رسله الكرام، إنما ينهونهم عما نهاهم الله عنه وبلغتهم إياه رسلُه الكرام»[2].

السبب الثاني: تعظيمُ النَّفْس الذي يجعل صاحبه مُعتزًا بنفسه لا يقبل رأيَ غيره؛ فيرى في الحاكم ذلك الشخص المعصوم الملهم ولا يقبل نَقدَ الناس فيه، أو يشير على الحاكم برأيه وإن كان خطأ دون التفات لآراء غيره من العلماء. أو يكون

(١) مِن لقاء مع الشيخ محمد الحسن الددو في برنامج (مقابلة) على قناة الجزيرة، الجزء الأول بتاريخ ٢٠١٧/٤/٢٠م، في القسم الأخير منه.
(٢) تفسير ابن كثير: (٦٦/٢).

تعظيمُ النفس لديه دافعًا للظنّ بأنّ نُصرة الدين محتاجةٌ إليه وإلى مَنْ معه؛ فيسوّغ لنفسه الوقوفَ مع الحاكم بغير حقّ؛ لأجل المحافظة على مركزه وقوّة جماعته.

السبب الثالث: الجبن والخوف من السلاطين، فيوافقهم على جرائمهم، تقديمًا لسلامته على مصلحة الأمة، ولذلك لمّا مدح الله تعالى الأنبياء وأتباعهم، ذكر صفةً مهمةً مِن صفاتهم وهي أنّهم لا يخشون أحدًا إلا الله، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

> **ممَّا ساعد في انتشار الفهم السَّقيم للنصوص التي تأمر بطاعة وُلاة الأمر؛ الخللُ في فهم نصوص السياسة الشرعية، ومنزلة ولي الأمر، ومهمّته، وحقوقه، وواجباته. وكذلك ضعف الوعي والافتتان بالسلاطين.**

السبب الرابع: القُرب مِن السلطان، والدخولُ عليه، ومِن ثمَّ الافتتان به والوقوع في شباكه، وقد وردت بعض النصوص والآثار التي تحذر من ذلك، منها:

حديث أبي سعيد الخدريّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (سيكونُ أمراءُ يغشاهم غَوَاشٍ، أو حَواشٍ من النّاس يَظلمون ويكذِبون، فمن أعانهم على ظُلمهم وصدَّقهم بكَذبهم، فليس منّي ولا أنا مِنه، ومن لم يُصدِّقهم بكذبهم، ولم يُعنهم على ظُلمهم، فأنا منه وهو مِنّي)[(١)].

وعَن حذيفةَ بن اليمان ﷺ قال: «إيَّاكم ومواقِف الفتن»، قيل: وما مَواقِفُ الفِتن يا أبا عبدِ الله؟ قال: «أبوابُ الأمراء؛ يدخلُ أحدكم على الأمير فيصدّقه بالكذب، ويقول له ما ليس فيه»[(٢)].

وعن ابن مسعود ﷺ أنّه قال: «إنَّ على أبواب السُّلطان فتنًا كمَبَارك الإبل، والذي نَفسي بيده لَا تُصيبونَ مِن دُنياهم إلا أصابوا من دِينكم مثله»[(٣)].

ويمكن القول إنَّ ممَّا ساعد في انتشار الفهم السقيم للنصوص التي تأمر بطاعة وُلاة الأمر؛ الخللَ في فهم السياسة الشرعية، بضوابطها الشرعية الصحيحة، ومنزلة ولي الأمر، ومهمّته، وحقوقه، وواجباته. وكذلك ضعف الوعي وسهولة الانخداع مِن قِبَل هؤلاء العلماء.

السبب الخامس: انتشارُ الطغيان المادي بين فئات المجتمع، فقد أصبح همُّ جمع المال من أجل التنعم بالترف الذي تنتجه الحضارة المادية مطلبًا للكثير من النَّاس، ومِن هؤلاء: بعض العلماء. فمن أراد أن يتنعم هو وعياله بأفضل المساكن والسيارات... وغيرها، فهو بحاجة إلى دخلٍ مالي كبير، ممّا أدى إلى انزلاق بعضِ العلماء في ركبِ السلاطين ليستطيع تأمين متطلبات رفاهيته، وربما كان ذلك تحت ضغط الزوجة والأولاد.

ولذلك حذرنا الحقُّ سبحانه وتعالى من الركون إلى الدنيا، والتعلق بها، فقال سبحانه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥- ١٧٦].

السبب السادس: حاجةُ السلاطين لعلماء يُرَقِّعون لهم مواقفَهم وقراراتِهم، ويعطونهم الشرعية لاستمرارهم في حكمهم الظالم، فيعمدون إلى تقريب مَن باع علمَه وآخرتَه بدنياه مقابل حُطامٍ مِن الدنيا قليلٍ، وربما أسسوا لهم مجالس وهيئات، يزعمون أنها مستقلة وهي تأتمر بأمرهم، كبعض الجماعات أو المجالس العلمية الإفتائية لحكوماتهم في زماننا المعاصر.

وحكام هذا الزمان أتقنوا فنَّ اصطياد فرائسهم مِن العلماء أكثر مِن غيرهم، بل مِن هؤلاء العلماء مَن يُصنَعُ صناعةً، ويتربى على يدي الحاكم صغيرًا حتى ينتفع به كبيرًا، ولذلك سيطر الحكام -في كثيرٍ من بلادنا العربية- على المدارس والمؤسسات التعليمية الدينية سيطرةً شبه كاملة، وتحكموا في منهاجها، وتوجهاتها، وسياساتها، وفي القائمين عليها.

---

(١) أخرجه أحمد (١١٨٧٣).

(٢) شرح السنة، للبغوي (١٤/٢٩٥).

(٣) جامع معمر بن راشد (٢٠٦٤٤). وهذا الدخول الممنوع محمولٌ على دخولِ الطمع بما عندهم مِن دنيا، والمدح والموافقة على باطلهم. أما دخول النصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإصلاح أحوال المسلمين: فهذا مما لا بدّ منه. والموفَّق مَن مَيَّزَ بين الموقفين فوازَنَ اعتدَل.

الآثار السلبية لظاهرة علماء السلاطين

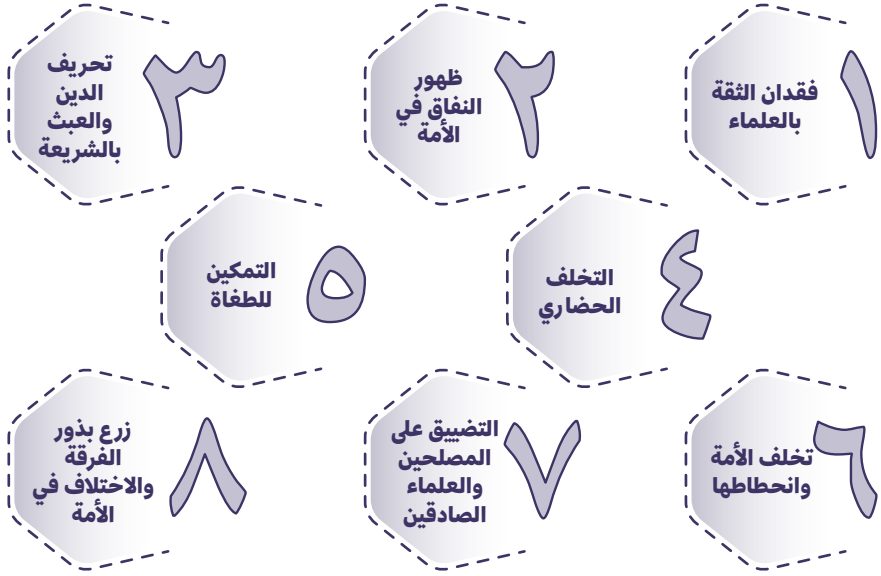

وربما أنشؤوا لهؤلاء العلماء مدارس ارتبطت بأسمائهم ارتباطًا وثيقًا، وغُرس في نفوس طلابها التعلّقُ بهذا الشيخ، وعدمُ مخالفته، وهو بدوره لن يخالف الدولة التي منحته «بكرمها» مساحةً كافيةً للعمل التعلمي والدعوي.

> **«و(أولو الأمر): أصحابُ الأمرِ وذَوُوه، وهم الذين يأمرون الناس، وذلك يشتركُ فيهِ أهلُ اليَدِ والقُدرةِ وأهلُ العِلم والكلام، فلهذا كان أُولُو الأمرِ صنفَين: العلماءُ، والأمراءُ، فإذا صلَحوا صلَحَ الناسُ، وإذا فسَدوا فسَد الناسُ»**
>
> ابن تيمية رحمه الله

حُجَجٌ يستند إليها علماء السلطان ويجعلون منها أدلّة لما يذهبون إليه:

يعتمد علماء السلطان على عدد مِن الحُجَج الواهية ليُبَرِّروا دعوتهم الناسَ إلى الطاعة العمياء، والتسليم للحاكم في كل ما يأمر به، واستقصاءُ شُبُهاتِهم يطول، لذا سيقتصر المقال على حُجتين فحسب لبيان أسلوب تعاملهم مع النصوص الشرعية بالانتقاء والتضليل:

يستدلون بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، ويقولون: الآية تدلّ صراحةً على وجوب طاعة وليّ الأمر وعدم مخالفته. ويحشدون إلى جانب ذلك العديدَ مِن الأدلة التي توجب طاعةَ الحاكم، وتحذر مِن مخالفته وشقِّ عصا الطاعة.

والجواب عنها من وجهين:

الأول: أن كثيرًا من العلماء لم يفسّر ولي الأمر المذكور في الآية بأنهم الولاة فقط، بل جعلوا اللفظ شاملًا للعلماء أيضًا، قال ابن تيمية رحمه الله في هذه الآية: «و(أولو الأمر) أصحابُ الأمرِ وذَوُوه، وهم الذين يأمرون الناس، وذلك يشتركُ فيهِ أهلُ اليَدِ والقُدرةِ وأهلُ العِلم والكلام، فلهذا كان أُولُو الأمرِ صنفَين: العلماءُ، والأمراءُ، فإذا صلَحوا صلَحَ الناسُ، وإذا فسَدوا فسَد الناسُ»[(١)].

فولاةُ الأمرِ هم العلماء والحُكّام معًا، وبالتالي فإن وجوب الطاعة ليس محصورًا بالحكام، «فإن العلماءَ وُلاتُه حِفظًا وبيانًا وذبًّا عنه وردًا على من ألحَدَ فيه وزاغَ عنه، والأمراءُ وُلاتُه قيامًا وعنايةً وجهادًا وإلزامًا للناس به»[(٢)].

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لابن تيمية، ص (٥٣).
(٢) الرسالة التبوكية، لابن القيم، ص (٤١).

فطاعةُ الحكام ليست الوحيدةَ المنصوص عليها في الشرع، فضلًا عن أن تكون طاعةً مُطلقةً من أي شرط أو قيد، كما سيتبين في الفقرة التالية.

الوجه الثاني: أنَّ هذه الطاعة ليست مطلقةً بل هي مقيدة بطاعة الله سبحانه وتعالى، قال النبي ﷺ: (لا طاعةَ في معصية، إنَّما الطَّاعةُ في المعروف)[١]، وقال أبو بكر الصدّيق ﷺ عندما خطب في الناس بعد توليته: «أطيعوني ما أطعتُ اللهَ ورسولَه، فإذا عصيتُ الله ورسولَه فلا طاعةَ لي عليكم»[٢].

الاستدلالُ بحديث حذيفة بن اليمان ﷺ قال: قلت: «يا رسول الله، إنا كنا بِشَرٍّ، فجاء اللهُ بخير، فنحن فيه، فهل من وراء هذا الخير شرٌّ؟» قال: (نعم)، قلت: «هل وراء ذلك الشرِّ خيرٌ؟» قال: (نعم)، قلت: «فهل وراء ذلك الخيرِ شرٌّ؟» قال: (نعم)، قلت: «كيف؟» قال: (يكون بعدي أئمةٌ لا يهتدون بهُداي، ولا يَستنُّون بسُنتي، وسيقوم فيهم رجالٌ قلوبُهم قلوبُ الشياطين في جُثمانِ إنسٍ)، قال: قلت: «كيف أصنع يا رسول الله، إنَ أدركتُ ذلك؟» قال: (تَسمع وتطيع للأمير، وإن ضربَ ظهرك، وأخذَ مالك، فاسمع وأَطِعْ)[٣].

ويقولون: هذا الحديث يأمر فيه رسول الله ﷺ بطاعة الحاكم والتزامِه وإن كان ظالمًا، ويضيفون له العديد من النصوص التي تأمر بالصبر على الحاكم وظلمِه وجَوره، وعدم نزع اليد من طاعته.

والرد على هذا الاستدلال بعدّة أوجه:

الأوّل: أن زيادة (وإن جلد ظهرَك وأخذ مالَك) ضعفها العديد من أهل العلم[٤]، قال الإشبيلي في الأحكام الوسطى: «هذا يرويه مسلم من حديث أبي سلام عن حذيفة، وأبو سلام لم يسمع من حذيفة، قاله الدارقطني»[٥].

الثاني: الحديث محمولٌ –لو صحَّ– على الصبر على أئمة الجَور من المسلمين، وعدم الخروج عليهم بالسيف، لا أن يكون هذا مبررًا لطاعتهم طاعةً عمياء دون قيد أو شرط، وتأييدهم على الباطل، أو ترك الإنكار عليهم بغير السيف، كالجهاد باللسان واليد، كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (ما مِن نبيٍّ بعثه الله في أمة قَبلي إلا كان له مِن أمته حَواريُّونَ، وأصحاب يأخذون بسُنَّتِه ويقتدون بأمره، ثم إنها تَخلُفُ مِن بعدِهم خُلوفٌ يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يُؤمرون، فمَن جاهدَهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراءَ ذلك من الإيمان حبةُ خردلٍ)[٦].

الثالث: بضَمِّ النصوصِ الشرعية مع بعضها، والنظر في أقوال أهل العلم يتضح أن المقصود من هذا الحديث الحفاظُ على جماعة المسلمين وتقديم المصلحة العامة إذا كان الحاكم على درجة مقبولة من العدل وإقامة الدين، ارتكابًا لأخفِّ الضَّررَيْن، واحتمالًا لأدنى المفسدتين، ويشهد لذلك العديدُ مِن النصوص الشرعية، ومنها مثلًا:

- حديث عَوف بن مالك، عن رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال: (خِيارُ أئمَّتِكُم الذين تُحبونهم ويُحبونكم، ويُصلُّون عليكُم وتُصلُّون عليهم، وشِرارُ أئمَّتكم الذين تُبغضونهم ويُبغضُونكم، وتَلعنونهم ويلعنونكم)، قيل: يا رسول الله، أفلا نُنَابِذُهُم بالسيف؟ فقال: (لا، ما أقاموا فِيكُم الصلاة، وإذا رأيتُم مِن وُلاتكم شيئًا تَكرهونه، فاكرهوا عَمَلَه، ولا تَنزِعوا يَدًا من طاعة)[٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٥٧).

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام (٦٦٠/٢) وصححه ابن كثير وغيره.

(٣) أخرجه مسلم (١٨٤٧) وأحمد (٢٣٤٢٩).

(٤) منهم الإمام مسلم الذي أخرج الحديث، فقد أشار إلى ضعفها بتأخيرها إلى آخر الباب، ورواها بإسناد فيه انقطاع، بعد روايته للحديث بإسناد متصل، ومن عادة الإمام مسلم أنه يبين علل بعض الأحاديث في صحيحه بهذه الطريقة، فيروي الصحيح، ثم يتبعه بما فيه علة أو خطأ، صرح بهذه العادة عند مسلم العلماء المطلعون على خبايا صحيحه، ومنهم على سبيل المثال الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي في: الأنوار الكاشفة ص (٢٣٠). وقد قال مسلم في مقدمة صحيحه ص (٧): «وسنزيد إن شاء الله تعالى شرحًا وإيضاحًا في مَواضعَ من الكتاب عند ذكر الأخبار المعللة، إذا أتينا عليها في الأماكن التي يليق بها الشرح والإيضاح، إن شاء الله تعالى». انتهى. ويدل قوله هذا على أنه يورد أحاديث فيها علل ليبين عللها، فإن كانت العلة واضحةً لا تحتاج لشرح تركه، وإن احتاج بيانها لشرح أتى به. وهذه الزيادة يرويها ممطور الحبشي أبو سلام عن حذيفة رضي الله عنه، ولم يسمع منه فهو منقطع.

(٥) الأحكام الوسطى، لعبد الحق الإشبيلي، المعروف بابن الخراط (٣٧٢/٢).

(٦) أخرجه مسلم (٨٠).

(٧) أخرجه مسلم (١٨٥٥).

- وحديث ابن مسعود، عن النبي ﷺ، قال: (ستكونُ أَثَرَةٌ وأمورٌ تنكرونها) قالوا: يا رسول الله فما تأمرنا؟ قال: (تُؤدُّون الحقَّ الذي عليكم، وتسألون اللهَ الذي لكُم)[1].

ولا يعني هذا السكوتَ عن ظلمه وعدمَ الإنكار عليه، فضلًا عن المطالبة بالخنوع له.

الرابع: حَمَلَ بعضُ أهل العِلم الحديثَ على أن يكون الإمام على حقٍّ لا على باطل، قال ابن حزم رحمه الله تعالى: «أما أمرُهُ ﷺ بالصبر على أخذ المَال وَضربِ الظّهر فإنما ذلك بلَا شكٍّ إذا تولى الإمام ذلك بحق، وهذا ما لا شكَّ فيه أنه فرض علينا الصَّبر لَهُ، ... وأما إن كان ذلك بباطلٍ فمعاذ الله أن يأمر رسول الله ﷺ بالصبر على ذلك، برهان هذا قول الله عز وَجل: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]»[2].

> **من النظر في أقوال أهل العلم يتضَّح أن المقصود من حديث: (وإن ضربَ ظهرك، وأخذَ مالك) على فرض صحة هذه الزيادة: الحفاظُ على جماعة المسلمين وتقديم المصلحة العامة على الخاصة إذا كان الحاكم على درجة مقبولة من العدل وإقامة الدين، لا تركيع الأمة للحاكم الظالم أو عدم الإنكار على ظلمه.**

خَطَرُ ظاهرةِ علماءِ السُّلطان، وأثرُها السَّلبِيُّ على الأمّة:

إن هذه الظاهرة لهي أشدُّ خطرًا على الأمّة من أعدائها الذين يتربَّصون بها الدوائر، وذلك لما تركه من آثار خطيرة، منها:

١. تحريف الدّين والعبث بالشريعة الإسلامية، وهؤلاء العلماء يَلوُونَ أعناقَ النُّصوص، ويضعونها في غير مواضعها، مما يؤدي إلى تشويه صورةِ الشريعة في عيون عَوامِّ المسلمين، وهذا ما وقعت به الأمم السابقة، قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النّساء: ٤٦].

٢. ظاهرةُ علماءِ السلطان تشجّع على ظهور النفاق في الأمة، لأنّهم سيكونون قدوة لغيرهم من طلاب العلم المبتدئين، ومِن عوامِّ المسلمين، ومعلومٌ أنّ المنافقين أخطرُ على الأمة مِن أعدائها، فهم يَنخَرونَ في جسد الأمّة من الداخل والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

٣. ظاهرة علماء السلطان تجعل عوامَّ المسلمين يفقدون الثقة بالعلماء، وينفرون منهم، بل قد ينفرون من الدين كلّه بسبب هذه النماذج السلبية التي يرونها[3]، ولذلك ما أكثر ما نسمع من سُخرية العوامّ من أمثال هؤلاء العلماء. كما أنّ أعداء الشريعة وعلمائها من العلمانيين وجدوا في ذلك ضالَّتهم، فما أسعدهم بسقوط العلماء، وبانفضاضِ النّاس عنهم. ولك أن تتخيَّل الآثار السلبية التي تعود على الأمّة في مثل هذه الحالة.

٤. التمكينُ للطُّغاة وإعانتُهم على التسلُّط على رقاب العباد وسفك دمائهم وسَلب أموالهم، واستباحة بلادهم، وأيُّ شيءٍ أخطر على عموم المسلمين من ذلك؟! قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

وفي العصر الحالي ظهر خطر علماءِ السلطان كما لم يظهر من قبل، فقد انحازوا للطُّغاة الظَّلمة المُبدِّلين لدين الله، وسخَّروا منابرهم وعلمهم لتركيع الشُّعوب لهؤلاء الطُّغاة، وحرَّموا نقدهم أو الاعتراضَ عليهم بزعم أن هذا من الخروج عليهم، ثم منحوا الحكّام الفتاوى الدينية التي تُبيحُ قمع

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٣).

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم الظاهري (١٣٣/٤).

(٣) ومن أمثلة هذا التشويه لدى النصارى: ما قام به رجال الكنيسة في أوربا، فقد وقفوا مع الملوك الظلمة، وحاربوا العلماء ونكَّلوا بهم أيَّما تنكيل، حتى انقلب عامَّة الناس على الكنيسة واعتبروها سببًا في الظلم والتخلف الذي وصلت إليه المجتمعات، فانتشرت مقولة: (الدين أفيون الشعوب)، وفي الثورة الفرنسية انتشرت مقولة: (اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس). وللأسف الشديد تسرَّبت بعض هذه الأفكار إلى عالمنا الإسلامي عبر العلمانيين العرب، والمنبهرين بالحضارة الغربية المزعومة، وممّا ساعد هؤلاء على نشر أفكارهم: علماء السلاطين الذين أعطوا أسوأ صورة عن الدين والمتدينين.

أسباب ظاهرة «علماء السلاطين» وآليات الحدّ منها

الشعوب بكل الوسائل، فقُتل بسبب ذلك وسُجن الآلاف، وشُرّدَ آخرون من بيوتهم وبلدانهم، وكلّ ذلك وعلماء السلطان يَدعونَ له على المنابر بالنّصر على أعدائه، وتمكينه من رقابهم!.

> **إن أئمة الجَور لا يَبنون أُممًا، ولا يُقيمون حضاراتٍ، بل إنّ بقاء سُلطانهم قائمٌ بالدرجة الأولى على نشر التخَلُّف بين أفراد المجتمع، وإشغال النّاس بالرَّكض وراء لقمة العيش، ومما يعينهم على ذلك علماء السلاطين الذين سخّروا منابرهم وعلمهم لتركيعِ الشّعوب.**

٥. التَّمكينُ للطُّغاة الظَّلَمة يؤدي بالأمة إلى التَّخلُّف والانحطاط؛ لأن هذا الحاكم لا همَّ له إلا السيطرةُ على البلاد والتحكّم بخيراتها، وتوريثُ الحُكم لذُرّيته من بعده، وتسخيرُ خيرات البلاد ومقدراتها البشرية والعلمية والاقتصادية لذلك، فلا تهمُّه نهضةُ الأمّة ولا رُقِيُّها، بل إن شُيوع الجهل والفقر بين العامة يُسهّلُ مهمة الاستيلاء على الحكم، ونظرةٌ إلى أغلب البلاد العربية تغني عن كثيرٍ من الشرح والتفصيل.

٦. وسيلةٌ للتَّضييق على المصلحين والعلماءِ الصَّادقين بزعم أنَّ هؤلاء الحكام المستبدّين لا يُحاربون العلماء ولا المصلحين، وإنما يُحاربون المفسدين المخرِّبين، بدلالة أن هناك «علماء» آخرين مُعزَّزين مُكرَّمين يُمارسون الدعوة بحُرِّية!

٧. زرع بُذور الفُرقةِ والاختلافِ بين أبناء الأمة، فهؤلاء لهم أتباعُهم، والعلماء الصادِعونَ بالحقّ لهم أتباعُهم كذلك، مما يؤدي إلى انقسامِ المجتمعِ إلى فريقين، ولا سيّما بين طلاب العلم، والأمة مِن بعدهم.

٨. إسقاطُ الأمة سياسيًا، والتسبُّب في انهيار الدولة، والتخلّف الحضاريّ للأمة بجميع جوانبه. لأن أئمة الجَور لا يَبنون أُممًا، ولا يُقيمون حضاراتٍ، بل إنّ بقاء سُلطانهم قائمٌ بالدرجة الأولى على نشر التخَلُّف بين أفراد المجتمع، وإشغال النّاس بالرَّكض وراء لقمة العيش.

طرق وآليات للحدِّ من ظاهرة علماء السُّلطان، والتصدي لها:

١. إنَّ أهمّ طريقةٍ للحدِّ مِن هذه الظاهرة الخطيرة هي غرس القيم والأخلاق في نفوس طُلَّابِ العلم منذ الصّغرِ، وأن يكون ذلك عن طريق وسائل أكثر نجاعةً من مجرّد دراسة الطُّلاب لمادة أو اثنتين عن الأخلاق، ومن ذلك القدوةُ الحسنة، والتطبيقُ العملي لهذه القيم من قِبل القائمين على هذه المؤسسات التعليمية والمدرسين فيها.

٢. تربيةُ طلاب العلم الشرعي على إخلاص العمل لله تعالى، وأن يكون وَلاؤُهم لله سبحانه وتعالى

لا للشيخ ولا للمدرسة، حتى لا يَنجَرَّ الطالب في المستقبل وراءَ شيخه أو مدرسته إذا والَوا السلطان وعاونوه على الباطل.

ولذلك مِن الضرورة بمكان: العملُ على بيان ألاعيب الشيطان وتلبيساته على طلبة العلم، وإبرازُ وسائلِ النَّجاة.

٣. بيانُ عقوبة العالِمِ الذي ينافق للحاكم ويناصره في باطله.

وقد وردت العديد من النصوص الشرعية التي تُبيّن العقوبة الإلهية للعالم الذي ابتغى بعلمه غير وجه الله تعالى، ومنها قوله ﷺ: (إنَّ أولَ الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل... ورجل تعلَّم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتي به فعرَّفه نِعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلَّمتُ العلم وعلَّمتُه، وقرأتُ فيكَ القرآن، قال: كذبتَ، ولكنك تعلَّمتِ العلم لِيُقال: عالم، وقرأتَ القرآن لِيُقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أُمر به فَسُحِبَ على وجهه حتى أُلقي في النار،...)[١].

ومنها قوله عليه الصلاة والسلام: (يُجاء بالرَّجل يوم القيامة فيُلقى في النار، فتَندَلِقُ أقتابُه في النار، فيدورُ كما يدورُ الحمارُ بِرَحاه، فيجتمعُ أهلُ النار عليه فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليسَ كنتَ تأمُرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنتُ آمركُم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكُم عن المنكر وآتيه)[٢].

كما أنَّ عالم السُّلطان الظالم شريكٌ له في ظلمه هذا، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [النساء: ١١٣] يقول الإمام البَغوي رحمه الله في تفسيره: «والرُّكون: هو المحبة والميلُ بالقلب، وقال أبو العالية: لا ترضوا بأعمالهم. قال السّدي: لا تُداهنوا الظَّلمة. وعن عكرمة: لا تُطيعوهم. وقيل: لا تسكنوا إلى الذين ظلموا. ﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾ فتُصيبَكُم، ﴿النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: أعوانٍ يمنَعونكُم من عذابه، ﴿ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾»[٣].

٤. تحذير طلاب العلم من خطر الدخول على السلاطين الظلمة، وحثهم على الابتعاد عن هذه المواطن قدر المستطاع، إلا من علم من نفسه القدرة على نصحه في الله، وأمِن الفتنة على نفسه.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [هود: ١٦٦ – ١٦٧].

ومِن الوسائلِ النَّاجعة في ذلك: ذكرُ نماذج من هؤلاء العلماء المنافقين، وما آل إليه حالهم، من انتكاسةٍ وازدراءٍ من عموم المسلمين.

٥. تنبيهُ عامة المسلمين إلى أهمية التَّمييز بين العلماء الربانيين الذين يُؤخذ عنهم العلم والفتوى، وعلماء السلاطين المأجورين الذين أوغلوا في الطّغيان وشاركوا السلطان في جرائمه بِحق الأمة وعقيدتها وثوابتها؛ فهؤلاء لا يُؤخذ منهم علم، ولا يُستفتون، ولا يُقتدى بهم.

إنَّ أهمّ وسيلةٍ للحدِّ مِن ظاهرة علماء السلاطين الخطيرة هي غرس القيم والأخلاق في نفوس طُلّاب العلم منذ الصّغر، والتطبيقُ العملي لهذه القيم من قِبل القائمين على المؤسسات التعليمية والمعلمين فيها.

٦. بيان خطورة هذا العمل على الفرد والأمة، في الدنيا والآخرة، عن طريق الدعاة المخلصين، ونشرُ الوعي المجتمعي في بيان خطر هذه الظاهرة التي تُمكن للحكام المستبدّين، حتى يغدو أفراد المجتمع رافضين للحاكم المستبد، يقفون للتَّصدي له إن ظهرت بوادره.

نسأله تعالى أن يُثبِّت العلماء والدعاة العاملين المخلصين، وأن يشدَّ من أزرهم، وأن يمنّ على الأمة بمزيدٍ من العلماء الربانيين، القوامين بالحق الذين لا يخافون في الله لومة لائم.

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥).
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٦٧). (فتندلق) تخرج وتنصَبُّ بسرعة. (أقتابه) جمع قَتَبٍ وهي الأمعاء والأحشاء. (برَحاه) حجر الطاحون التي يديرها.
(٣) تفسير البغوي (٤/٢٠٣).

أسباب الخلاف المذموم «نظرة منهجية»

عاصم الحايك (*)

تدارسُ أسباب الخلاف المذموم أمر من الأهمية بمكان، نظراً لآثاره السلبية العميقة في واقع الأمة، فإن عُرفت الأسباب فُهمت الظواهر، مما يُسهم في تضييق دائرة الاختلاف والتنازع.. فما هي أهم هذه الأسباب؟ تتناول المقالة بالتحليل هذه المسألة.

إن إدراك أسباب الخلاف المذموم في الحياة العِلمية والثقافية، يُسهِم في تضييق دائرة الاختلاف والتنازع في الممارسات العملية والسلوكية.

ولعل المتأملَ في ظاهرة الخلاف المذموم، يجدها تتمحور حول مسالك ومسببات ذات علاقة عكسية بينها وبين سَعة الفهوم والعقول من جهة، والخشية والعلم من جهة أخرى، فكلما زادت الخشية من الله ولازمها سعةُ الفهم والعلم، كلما ضاقت أسباب الخلاف المذموم.

وهذه العلاقة العكسية واضحة المعالم للمتأمل الحصيف في سِيَرِ أعلام المصلحين، من خلال قراءة متأنية في سلوكهم مع مخالفيهم.

ولن تتناول هذه المقالة أسباب الخلاف السائغ والمشروع فلعله يُراجع في مظانّه[1]، وإنما ستقتصر على أهم الأسباب الرئيسية المؤدية إلى الخلاف المذموم بين أهل السنة، مع الإقرار بوجود أسباب أخرى، لكنّها داخلة فيما نذكره ضمناً بوجهٍ ما، ولا يمكننا إغفال الترابط السلوكي والأخلاقي بين هذه الأسباب وبين طبيعة النفس البشرية ما لم تهذَّب وتقوّم بالقيم الإسلامية.

ويمكن إجمال أسباب الخلاف المذموم في المحاور التالية:

١- البغي:

لقد بيَّن القرآن الكريم أنّ أحد مصادر الاختلاف والافتراق بين أهل الكتاب كان بسبب البغي، في

(*) باحث شرعي.

(١) من الكتب التي ألفت في هذا الباب: «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» لابن تيمية، و «الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم» للبطليوسي، و «الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف» للشاه ولي الله الدهلوي، و «أسباب اختلاف الفقهاء» للدكتور عبد الله التركي.

رسالةٍ جليةٍ إلى العلماء والمصلحين من هذه الأمة؛ أنّ الخلاف المذموم قد يقع بينهم بسبب البغي مع وجود العلم؛ لأن الأخير لا يكفي لصلاح المرء وإصلاح واقعه ما لم تسانده الخشية، وتعضده الأخلاق الحميدة، والآداب المرعية لأن «الاجتهاد السائغ لا يبلغ مبلغَ الفتنة والفرقة إلا مع البغي لا لمجرد الاجتهاد، كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

فلا يكون فتنةٌ وفرقةٌ مع وجود الاجتهاد السائغ، بل معَ نوع بغي»[(١)].

إنّ صور البغي في الخلاف تتمحور حول التعدي والجَور على المخالف مِن خلال عدم إنصافه، وتجريحه، والإسفاف في عبارات الرد عليه، واعتبار كلّ خلاف مسوّغًا للتهاجر والتدابر.

إنّ مظاهر البغي بين بعض المثقفين تطفو على السطح عبر امتطاء صهوة الردود العلمية، أو المناكفات الفقهية، لتصفية الحسابات والخلافات بين أتباع المدارس المتعددة، والتيارات المتنازعة، فتشم رائحة البغي من عنوان الكتاب قُبيل الولوج في صفحاته، من خلال إسقاط الرموز العلمية، والتنقص من شأن الدعاة إلى الله تعالى، واتهام النوايا والمعتقدات.

وثمة مظهر آخر مِن مظاهر البغي، وهو الذي يمارسه بعض الانتقائيين في قراءة النصوص، لتصيّد أخطاء المخالف من خلال اجتزاء جزءٍ من حديثه دون بقيته والذي يكون موضّحًا للمراد، أو مِن خلال إثارة بعض الآراء والاجتهادات الفكرية التي تراجع عنها، أو تحميل كلام المخالف ما لا يحتمل عبر ممارسة أسلوب الفِرية والبهتان، إلى غير ذلك مِن الممارسات التي يلمسها الناظر والمراقب في الحوارات والنقاشات والردود الجارية في الساحة الدعوية والفكرية.

ولو تَأمّلَ مَن سلّ سيفَ البغي مِن غِمد العدل أنه محاسبٌ أمام الله تعالى على ما سطرته يمينه، فحسبه أن يتدبر قول الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١١٨].

«مظاهر البغي بين بعض المثقفين تطفو على السطح عبر امتطاء صهوة الردود العلمية، أو المناكفات الفقهية، لتصفية الحسابات والخلافات بين أتباع المدارس المتعددة، والتيارات المتنازعة».

٢- الجهل:

الجهل سببٌ لازم لكثيرٍ من أنواع الخلاف، وهو أصل كل شر، حيث تؤول النقاشات والقضايا بسببه إلى الفرقة والتنازع، وهذه الحيثية قررها الشاطبي بوضوح عندما ذكر أسباب الافتراق فقال: «أن يَعتقدَ الإنسانُ في نفسه أو يُعْتَقَدَ فيه أنه مِن أهل العلم والاجتهاد في الدين -ولم يبلغ تلك الدرجة- فَيَعْمَلُ على ذلك، ويَعُدُّ رَأيَه رَأيًا وخلَافَهُ خلافًا...»[(٢)].

إن كثيرًا من الخلافات والمساجلات الجدلية، والتي يهيمن على أسلوبها البغي، ويسيطر على لغتها العدوان والبهتان إنما تقع بسبب الجهل بأحد الجوانب التالية:

الجانب الأول: الجهل بأنواع الخلاف ومراتبه، ومعرفة ما يُقبل مِن الخلاف، وما لا يُقبل، وما يصح أن يدخل ضمن إطار الخلاف السائغ وما لا يصح.

الجانب الثاني: الجهل بالمواقف الشرعية والضوابط المعتبرة في التعامل مع الخلاف والمخالفين بحسب نوع الخلاف، ومنزلة المخالف، والجهل بقاعدة: (لا إنكارَ في مسائل الاجتهاد).

الجانب الثالث: الجهل في التعاطي مع المخالف مِن حيث منزلته ومكانته العلمية، وعدم التفريق بين العالم المجتهد المتأوّل، وبين المتجاسر على الشريعة، المتكلّم في دين الله بغير علم، وعدم التفريق أيضًا بين القول وصاحبه، وأنّه لا يلزم من ضلال القول ضلالُ صاحبه.

الجانب الرابع: الجهل بالدليل وحيثيات المسألة الخلافية بين الطرفين، ومتعلقاتها

(١) الاستقامة، لابن تيمية (٣١/١).
(٢) الاعتصام، للشاطبي (٦٧٩/٢).

مظاهر البغي في الخلاف

الأصولية، وأصول الحوار والجدل، والتعدّي بإلزام المخالف ما لا يلزم، وتحميل كلامه ما لا يحتمل، والحكم عليه بلازم كلامه ومذهبه.

٣- الهوى:

اتباع الهوى مِن أعظم ما يحجب العبدَ عن الهدى وإبصار الحقّ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ [ص: ٢٦]، والهوى يحمل صاحبَه على ترك الاستجابة لنداء الله، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

وإن لاتباع الهوى دورًا محوريًا في نشوء الخلاف والخصومة لأنه «إذا دخل الهوى أدّى إلى اتّباع المتشابه حرصًا على الغلبة والظّهور بإقامة العُذر في الخلاف، وأدّى إلى الفرقة والتّقاطع والعداوة والبغضاء؛ لاختلاف الأهواء وعدم اتفاقها، وإنّما جاء الشّرعُ بحسم مادّة الهوى بإطلاق، وإذا صار الهوى بعضَ مقدّمات الدّليل لم يُنتج إلا ما فيه اتباعُ الهوى، وذلك مخالفةُ الشّرع، ومخالفةُ الشّرع ليست مِن الشّرع في شيءٍ...»[(١)].

وحسبك مِن نماذج اتباع الهوى ما تجده من ردّ صريح للنصوص الصحيحة الصريحة، ولَيِّ أعناق النصوص تحت ذرائع تجمع بين طياتها اتباعَ الهوى والجهلَ المركب، وهذه الذرائع عادة ما تلبس لبوس الديانة والعلم، عبر اتخاذ مقاصد الشريعة سلّمًا للوصول إلى مخرجاتٍ ذات نُشوز فقهي، أو تشوهٍ فكري، تحت دعوى التجديد والعصرنة.

إن التجديد في الشريعة له أسسه ومرتكزاته وثوابته، بل وأهليته التي لا ينبغي لأي مسلم الولوج فيها دون علم.

وكلامنا هنا لا يتجه إلى المسائل ذات المنحنى الاجتهادي، إنما في قطعيات الشريعة وثوابتها، بل في مصادر تشريعها المتفق عليها صحةً وقبولًا.

إننا عندما نتدارس أسباب الخلاف المذموم فليس ذاك لمجرد حصرها في نقاط معينة، أو لاستحضار النصوص الشرعية، واستجلاب النقولات العلمية من كتب أهل العلم في ذات الموضوع، فهو مما أُشبع وقُتل بحثًا، وإنما لدراسة الصور الحقيقية و(المتحورة) الناتجة عن أسباب الخلاف المذموم، والتي تتقمص المظهر الإسلامي، والزي التجديدي والمقاصدي، والتي جعلت من النصوص الشرعية تابعة للمقاصد وليست متبوعة لها.

إن الشارع الحكيم لم يدع للمسلم الخيار في التعاطي مع الأمر الشرعي، بل كانت عبارات القرآن الكريم تنص على وجوب انقياد المسلم لله تبارك وتعالى، وتعظيم شعائره من خلال التسليم التام

(١) الموافقات، للشاطبي (٥/٢٢١).

للنص الشرعي، وهذا من كمال العبودية لله تعالى، بعيدًا عن بعض المزايدات الفكرية والتي تستند في دعواها على الهوى والجهل والتعصب، وحسبك ما قرره تعالى في كتابه فقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

قال الربيع بن سليمان: «سمعت الشافعي، وسأله رجل عن مسألة فقال: يُروى فيها كذا وكذا عن رسول الله ﷺ، فقال له السائل: يا أبا عبد الله، تقول به؟ فرأيت الشافعي أرعَدَ وانتفضَ، فقال: يا هذا، أي أرض تُقلُّني وأي سماء تُظِلُّني إذا رويت عن رسول الله ﷺ حديثًا فلم أقل به؟ نعم على السمع والبصر، نعم على السمع والبصر»[1].

إن المُرَكّب الذي شكّل معادلة التشوه الفكري والعقدي، وكان من مخرجاته وإفرازاته التمرد على الشريعة وأحكامها ونصوصها، إنما هو مزيج الهوى والعلم، حيث يحكي لنا القرآن الكريم خطورة اتباع الهوى مع وجود العلم فيقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

«إن المُرَكّب الذي شكّل معادلة التشوه الفكري والعقدي، وكان من مخرجاته وإفرازاته التمرد على الشريعة وأحكامها ونصوصها، إنما هو مزيج الهوى والعلم»

بل ويحكي لنا القرآن الكريم قصةً مِن القصص التي تستوجب التأمل والتدبر في دور الهوى عندما يجتمع مع العلم فتكون نتيجته الحتمية هي الانسلاخ من الحق، والنكوص عن صراط الله المستقيم، حيث يقول تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

حيث جعلت الآية الكريمة محور الغواية والانسلاخ عن آيات الله تعالى؛ هو اتباع الهوى والخلود إلى الدنيا.

أليس في هذا عظة وعبرة تجعلنا نقف مليًا لعمل مراجعات شرعية لكثيرٍ من المحطات الثقافية، والمنصات الفكرية والإعلامية، والتي جعلت من معركتها مع النص الشرعي هدفًا تخوض به غمار الحرب، فأسهمت في خلخلة الصف المسلم، تحت دعوى التجديد واتخاذ مقاصد الشريعة سُلمًا للوصول إلى ما ترمي إليه من مقررات ثقافية وفكرية مسبّقة.

ألا يلزمها إعادة النظر في بعضٍ من أطروحاتها وأوراقها الثقافية، والتأمل في تموضع الوحيين من مخرجاتها؟ حتى لا تُسهم في نكسة جماعية للجيل المسلم، من خلال تربيته على الالتفاف على نصوص الوحيين، وعدم تعظيم شعائر الله، والتشكيك في بعض الأحكام الشرعية القطعية، والتركيز على الجوانب الفكرية وإهمال أعمال القلوب.

«إننا في حاجةٍ ماسة لعمل مراجعات شرعية لكثيرٍ من المحطات الثقافية، والمنصات الفكرية والإعلامية، والتي جعلت من معركتها مع النص الشرعي هدفًا تخوض به غمار الحرب، فأسهمت في خلخلة الصف المسلم، تحت دعوى التجديد ومقاصد الشريعة»

٤- التعصب:

إن منشأ التعصب يكون من قلة العلم، وضعف الإدراك، مما ينتج عنه سلوك معادٍ مع المخالف، تكون ثمرته التفرق والتنازع.

ولقد سلك القرآن طريق الحوار لبيان الحق مع المخالف، بل ونهج طريقة التَّنزُّل مع الخصم، في محاولة لإظهار الحق وتبيان الصواب في أجمل صوره، وأبهى مظاهره.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٤-٢٥].

(١) بحر المذهب، للروياني، (١/٢٤).

تأمل أسلوب الآية في الحوار مع المشركين ومناظرتهم، وما فيه مِن التَّنزُّل مع الخصوم مع تحقّق اليقين التام بكون النّبي محمد ﷺ على الحق المبين.

وتأمل كيف استخدم القرآن الكريم لفظ ﴿أَجْرَمْنَا﴾ مع أهل الحق، وأما مع المخالف فقال ﴿وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وإنما وطَّأْنا بهذه التوطئة للإشارة إلى أربعة أمور:

- **أولًا:** أسلوب الحوار الذي انتهجه القرآن الكريم في مناظرة المشركين، فلعل الحوار مع المخالف المسلم أولى منه.
- **ثانيًا:** طريقة الاستدلال كما ورد في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾.
- **ثالثًا:** أسلوب التَّنزُّل مع الخصوم.
- **رابعًا:** التحلّي بالإنصاف مع المخالف.

وهذه الرباعية مُبَدِّدة للتّعصب ودعاته، حيث يرسل لهم ابن القيم رسالة هادفة فيقول: «فليتأمل اللبيب الفاضل ماذا يعود إليه نصرُ المقالات والتعصبُ لها والتزام لوازمها وإحسان الظن بأربابها بحيث يرى مساويهم محاسن، وإساءة الظن بخصومهم بحيث يرى محاسنَهم مَساوي. كم أفسد هذا السلوك من فطرة؟ وصاحبُها مِن الذين: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]»[(١)].

وأما الإمام الشافعي فيذهب إلى تشبيه بليغ يدلُّ على أنّ الخشية كانت مُلازمة للرعيل الأول من السلف الصالح، فلم يجعلوا مِن العلم سُلمًا للوصول إلى مآرب خفية، أو للولوج به في استباحة حِمى الآخرين، حيث يقول: «العلمُ بين أهل الفضل والعقل رحمٌ متصل»، قال الغزاليُّ معلّقًا: «فلا أدري كيف يدعي الاقتداءَ بمذهبه جماعةٌ صار العلمُ بينهم عداوةً قاطعةً ؟!»[(٢)].

«معقد الولاء والبراء لدى البعض أصبح مرتبطًا بالولاء المطلق للأشخاص والمنظمات، في تربيةٍ أفرزت حالات مِن التشوه التربوي والخُلقي في مسيرة البناء الدعوي في بعض مراحله الماضية»

لقد بنى أهلُ التعصب سياجًا منيعًا ضدَّ نقد رموزهم، فأيُّ نَقدٍ يُوجه لهم سيخرج الناقد في نظر أهل التعصب من دائرة السنة إلى البدعة.

وهذه ليست مبالغة، بل هو ما يحكيه الواقع المرير في بعض صُورِهِ القاتمة، فَبمجرد النصح أو النقد البنّاء لبعض الرموز العلمية أو الدعوية -ضمن الشروط الشرعية والآداب المرعية-، تنطلق عبارات التخوين، وتدور رحى المعارك الكلامية.

(١) مفتاح دار السعادة، لابن القيم، ص (٧٥).
(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي (٤٧/١).

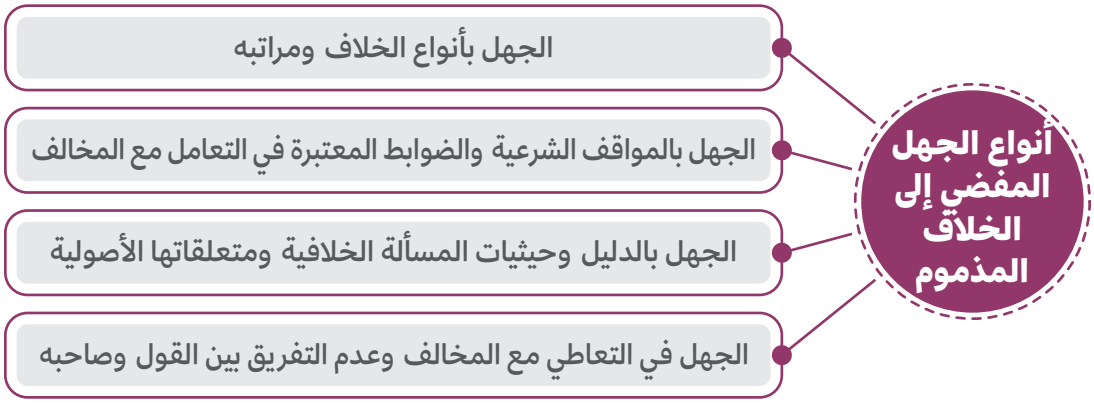

وهذا كلّه لأنّ العصبية تتنافى مع الإنصاف وأبجديات قواعده، بل إنّ العصبية والإنصاف ضدّان لا يجتمعان البتة.

إنّ مَعقِد الولاء والبراء لدى البعض أصبح مرتبطًا بالولاء المطلق للأشخاص والمنظمات، في تربيةٍ أفرزت حالات مِن التشوه التربوي والخُلقي في مسيرة البناء الدعوي في بعض مراحله الماضية.

وصدق الله إذ يقول: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

إنّ اختزال الأمة في رجل، أو اختزال الجهود الدعوية في كيان من أسباب تفرق الصف المسلم وتأجيج الصراعات الداخلية، كيف لا وهو إيغارٌ للصدور، وإيقاعٌ للعداوة والبغضاء، وإنقاصٌ لقدر وجهودِ كثيرٍ من العاملين والذين آثروا أن يكونوا مِن الأتقياء الأنقياء الأخفياء، فما ضَرَّهمْ ألّا يعرفهم مَن آثروا أن يُشيّدُوا روافد العصبية والتعصب، ويجعلوا مِن الولاء المطلق معيارًا للحق، بل ولسلوك منهج الإسلام القويم!.

إنّ ظاهرة التعلُّق بالأشخاص والتعصب الأعمى للمؤسسات أسهمت في خلق أجواءٍ سلبية مِن التفرق في جسد الأمة المسلمة، وفي تصدع الصف الإسلامي.

ولعلّ ظاهرة التعلق بالأشخاص مِن المسائل التربوية التي تحتاج إلى إشباع تربوي، وخاصة لدى الناشئة المؤمنة، ولقد عالج القرآن الكريم هذه الظاهرة في التنزيل الكريم حتى في حق صاحب الشريعة محمد ﷺ، والذي له مِن الخصائص النبوية ما ليس لغيره من البشر، حيث إنّ الإيمان به واتّباعه هو المنهج القويم بعينه، ومع ذلك كانت تربية الجيل الفريد على التعلق بالمنهج دون الأشخاص، فلنتأمل قول الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

«اختزال الأمة في رجل، أو اختزال الجهود الدعوية في كيان من أسباب تفرق الصف المسلم، وتأجيج الصراعات الداخلية»

وقد فطن رَجُلُ المرحلة أبو بكر الصديق رضي الله عنه لهذه الحقيقة الشرعية عندما حصل الخلاف حول وفاة النبي محمد ﷺ، فقال كلمته الشهيرة التي تدل على الثبات والاستحضار لهذا المبدأ العظيم عند اشتداد المحن: «ألا مَن كان يعبدُ محمّدًا فإنّ محمدًا قد مات، ومَن كان يعبدُ اللهَ فإنّ اللهَ حيٌّ لا يموتُ»[1].

«ظاهرة التعلق بالأشخاص والتعصب الأعمى للمؤسسات أسهمت في خلق أجواءٍ سلبية مِن التفرق في جسد الأمة المسلمة، وفي تصدع الصف الإسلامي»

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٨) مِن حديث عائشة رضي الله عنها.

برامج الأطفال الكرتونية وأثرها في تربية الطفل وتوجيه سلوكه

أ. أسامة ياسين صباغ(*)

يضجّ الإعلام الموجّه للأطفال بشتى البرامج التي تتدخل في تشكيل أخلاقه وسلوكياته، ولها من الآثار الإيجابية التي تدعونا إلى حُسن اختيارها واستغلالها، بالإضافة إلى آثار سلبية ما يوجب التنبيه لخطرها الداهم، فماذا يمكننا أن نفعل؟ وما دور الأهل في ذلك؟ وما البدائل المتاحة في ظل التحديات والأخطار الجديدة؟

مقدمة:

تعد الطفولة من أهم المراحل التي يمرُّ بها الإنسان منذ ولادته إلى أن ينمو ويكبر، حيث يتعلم خلالها المعارف ويكتسِب فيها الخبرات. وتعد السنوات الست الأولى منها الأكثر أهمية في تشكيل وجدانه العقلي، وتطوير نموه الإدراكي، وتكوين رؤيته تجاه ما يجري حوله من أمور الحياة. وهذه المرحلة هي اللبنة الأساس في تشكيل الإنسان الواعي الواعد؛ حيث إن ما تختزنه الذاكرة في باكورة أيامها، يسهم في ترسيخ الشخصية السليمة، المكونة على أسس صحيحة الفكر، منضبطة السلوك، متماسكة التركيبة النفسية.

ولا يخفى على عاقل ذي لب ما لبرامج الأطفال من أثر على تشكيل شخصيات أولادنا وبناء هوياتهم وتوجيه سلوكهم، ولا يخفى أيضًا ما يُستخدم في هذه البرامج من عوامل تشويق وجذب وشد انتباه وإثارة تجعل الطفل أمامها مشدودًا متابعًا لا تغمض له عين ولا تحينُ منه التفاتة.

لا سيما وأنَّ الأطفال يبدؤون عادة بمشاهدة هذه البرامج في عمر مبكرة، مما يزيد من تأثرهم بها واقتناعهم بما تحتويه من قيم وأفكار وتصورات. «وتشير كثير من الدراسات في مختلف بلدان العالم أن متوسط ما يقضيه الطفل الذي يتراوح عمره بين ست سنوات إلى ست عشرة سنة أمام الشاشة الصغيرة نحو ١٢- ٢٤ ساعة أسبوعيًا»(١).

(*) باحث مهتم بالتربية والتعليم.

(١) أثر وسائل الإعلام على الطفل، أحمد محمد زبادي، وآخرون، ص (٢٩).

مكانة الإعلام في توجيه الأطفال:

يُعد الإعلام -وخاصة التلفزيون- من أخطر مصادر توجيه الأطفال، لما له من جاذبية خاصة لهم، وإنَّ جزءًا من جاذبيته يكمن في سهولة نيله وإدراكه، وما ينتج عن ذلك من قيمته كشاغل للوقت.

ولعلنا ندرك خطورة الإعلام، «باعتباره يخاطب الطفل بلغته، ويواكب التطلعات العاطفية والنفسية والعقلية له، وقد يسبق الأبوين والأسرة في ذلك، لذا يعتبر من أهم مصادر التلقي عند الطفل، وقد يتخطى الرقابة الأبوية ليخاطب الطفل مباشرة لأسباب؛ منها ما يتعلق بالانفصال الحقيقي أو الشعوري بين الطفل والمربي، ومنها ما يتعلق بالالتواء في أساليب الترجمة والعرض لتورية مفاهيم معينة، يكون الوكيل المترجم والمقدم لها على قناعة برفض الأسر العربية لها، وعبر أحداث العمل يصل المفهوم المقصود للطفل، وتوضحه المشاهد والمواقف والأحداث»[١].

وقد «وسع التلفزيون خبرات الطفل باعتباره مصدرًا من مصادر المعرفة التي تمده بالقيم المعرفية والسلوكية، وتنقل له الثقافة والمعرفة من خلال الوظائف التي يقوم بها هذا الجهاز وهي التوجيه والتثقيف والتعليم والترفيه.

كما أنه يُزود الطفل بالخبرات والمهارات التي تدفعه إلى إتباع العادات الصحية في كافة مناحي سلوكه اليومي»[٢].

> **«إنَّ اختيار الأهل لأطفالهم برامج مناسبة قريبة لخيالهم، توصل لهم الأفكار بطريقة واضحة وسهلة له آثار إيجابية كثيرة؛ فهي تساعد على غرس عاداتٍ وقيمٍ مهمة لدى الأطفال، فضلاً عن اكتسابهم خبرات وتكوين معلومات ومعارف جديدة»**

آثار مشاهدة الرسوم المتحركة على الأطفال:

نظرًا لما تتمتع به الرسوم المتحركة من مرونة عالية في الإعداد، ووسائل جذب للأطفال فإنَّ لها العديد من الإيجابيات والسلبيات التي تترتب على كيفية استخدامها:

أولا: إيجابيات الرسوم المتحركة:

إنَّ اختيار الأهل لأطفالهم برامج مناسبة تحتوي على قصص واقعية ودينية واجتماعية قريبة لخيالهم، وتوصل لهم الأفكار بطريقة واضحة وسهلة له آثار إيجابية كثيرة؛ فهي تساعد على غرس عاداتٍ وقيمٍ مهمة لدى الأطفال، فضلاً عن اكتسابهم خبرات وتكوين معلومات ومعارف جديدة، ويمكن إجمال هذه الإيجابيات في التالي[٣]:

- تزيد من تطور اللغة عند الطفل، وإثراء قاموسه اللغوي؛ فهذه البرامج تعلّم الطفل -بما تحويه من لغةٍ سهلة محببة- لغةً عربيةً فصيحة قد لا يجدها في محيطه الأسري، مما ييسر له تصحيح النطق وتقويم اللسان، وتغرس لديه محبة اللغة العربية، وتسهّل عليه الحديث بها وفهمها.
- تعرض بعض الرسوم محتوى علميًا ميسرًا، مما يساعد على تكوين خلفية علمية للطفل.
- المساعدة على تطوير المهارات التخيلية وتوسيع أفق الطفل ومدركاته الحسية، وتعريفه بأساليب مبتكرة متعددة في التفكير والسلوك.
- تساعد الطفل على تفهم طبيعة العلاقات الاجتماعية وإكسابه المهارات والخبرات المتعلقة بها، كالنظافة الشخصية وآداب الحديث وآداب المرور والتعاون مع الآخرين.
- تحتوي الرسوم المتحركة على الحكايات التي يمكن أن تساعد على غرس التفكير العلمي وتشجعه على الاهتمام بالتكنولوجيا التي أصبحت من سمات العصر.
- تلبي بعض احتياجات الطفل النفسية، وتشبع له غريزة حب الاستطلاع؛ فتجعله يسعى لاستكشاف ما هو جديد، وغريزة المنافسة والمسابقة فتجعله يفكر في النجاح ويسعى إليه.
- تغرس اهتمامات جديدة لها تأثير على سلوك الطفل، وتكوين عاداته وقيمه، وتكسبه الخبرات والمعارف، وخاصة في هذه السن الصغيرة التي يكون فيها على استعداد لاستقبال ومعرفة الكثير من المعارف والخبرات والمعلومات.
- توفر جانبًا من التسلية، والضحك، والترفيه.

(١) ينظر: ملخص بحث (إعلام الطفل في مجال الفضائيات، واقعه وسبل النهوض به)، إعداد موقع الألوكة.
(٢) برامج الأطفال، كيندة التركاوي، موقع الألوكة.
(٣) ينظر: ملخص بحث (إعلام الطفل في مجال الفضائيات، واقعه وسبل النهوض به) موقع الألوكة، و: القيم المتضمنة في أفلام الرسوم المتحركة «دراسة تحليلية» د.عليان عبد الله الحولي، ص (٢١٨).

تختلف قيم صانعي برامج الأطفال عن قيم وأخلاق مجتمعاتنا الإسلامية. فتظهر فيها أخلاق وسلوكيات مرفوضة في ديننا وأخلاقنا.

ثانيًا: سلبيات الرسوم المتحركة:

تنطوي مشاهدة الرسوم المتحركة على العديد من الآثار السلبية التي تنعكس على الطفل المشاهد لها، ومن هذه الآثار:

١- الآثار الأخلاقيّة والتربويّة:

» تتعرض كثير من برامج الأطفال إلى القيم والمبادئ الأخلاقية بالهدم أو التغيير أو التشويه، حيث تختلف قيم صانعي هذه البرامج عن قيم وأخلاق مجتمعاتنا الإسلامية. فتظهر فيها أخلاق وسلوكيات مرفوضة في ديننا وأخلاقنا، كالصراخ في وجه الأم أو الأب، والتجسس، والنظر إلى العورات، وذكر بعض الألفاظ المنهي عنها شرعًا كاللعن والسب والتنابز بالألقاب، وغير ذلك من الأخلاق السيئة.

» طرح العلاقة والصداقة بين الجنسين واتخاذ الحبيب على أنه أمر اعتيادي وإظهار العلاقة بين الشاب والفتاة على أنها طبيعية في مختلف مستوياتها، بالإضافة إلى كثرة مظاهر التعري واللباس غير المحتشم للفتيات، وصولًا الى التلميحات الجنسية والأفعال الفاضحة، فيؤدي تكرارها لأن تكون أمرًا معتادًا لدى الطفل غير مستنكر.

» انخفاض مستوى الذوق واعتياد المشاهد والأصوات المقززة والملابس والحركات السخيفة، واعتبار هذه السخافات نوعًا من الطرافة والأمور المضحكة، مما ينعكس على شخصيات الطفل وسلوكه في التعلق بالسخافات والتفاهات وتقليدها.

» التشجيع على تحدي المسؤولين عن الطفل والاستهزاء بهم، مثل المعلمين، والآباء.

٢- الآثار الاجتماعيّة:

- التأثر بالشخصيات الكرتونية، والتي لا يشترط أن تكون دومًا شخصيات جيدة، بل من الممكن أن يتخذ الطفل الشخصية السيئة كقدوة، مما قد يؤثر في سلوكه الاجتماعي.
- التشجّع على السلوك العدواني، حيث تحوي الرسوم المتحركة العديد من مشاهد العنف والقتال العنيف، وأساليب الإيذاء بطرق المزاح والتسلية ونحوها.

بل حتى ما يقع منها دون قصد العنف، كتصوير عدم تضرر الشخصية الكرتونية من القتال أو العنف، مما يشجع الطفل على تقليد ذلك ظنًا منه أنه لن يتضرر، وكذلك المشاهد التي تصور الأبطال يطيرون ويقفزون ويتنقلون بكل خفة من هذا الجبل إلى ذاك المنحدر دون أي إصابة تُذكر، كما أن الشخصيات الخيالية التي تتمتع بقوةٍ خارقة للعادة كـ (سوبر مان وسبايدر مان) تشجع الأطفال على تقليدها، ومحاولة تقمصها، أو الطموح إلى أن يكون مثلها.

إن تصوير مشاهد القتل وسفك الدماء تؤثر في شخصية الأطفال وتجعلهم يستسيغون تلك الصور ويعتادونها، مما ينعكس على شخصياتهم ويجعلها أكثر عدوانية وعنفًا، ويطبع شخصياتهم بطابع إجرامي.

- فتح عين الطفل على أبواب وطرق للشر والإيذاء قد يكون غافلًا عنها.

قال الطبيب النفسي (ستيفن بانا) الأستاذ بجامعة كولومبيا: «إذا كان السجن هو جامعة الجريمة.. فإن التلفزيون هو المدرسة الإعدادية لانحراف الأحداث»[١].

إن أخطر ما تحويه مشاهد العنف التي تحملها هذه البرامج: أنها تبرر العنف وتجعله طبيعيًا في الحياة اليومية، وتظهره أحيانًا بطابع مضحك أو مشوق مما يجعل تقبّله أسهل وأسرع، كما أنّها تدفع الطفل ليكون متسامحًا مع المؤذي، وتفقده القدرة على التعاطف مع الضعيف.

إنَّ تصوير مشاهد القتل وسفك الدماء تؤثر في شخصية الأطفال وتجعلهم يستسيغون تلك الصور ويعتادونها، مما ينعكس على شخصياتهم ويجعلها أكثر عدوانية وعنفًا

(١) وسائل الإعلام (التلفزيون) د. فهمي قطب الدين النجار، موقع الألوكة.

- «وقد يحدث أحيانًا أن تقدم هذه الأفلام نموذجًا لخُلُقٍ حميد ما، لكنه في بيئة مختلفة ومعروض بأسلوب مختلف غير ذلك الذي نعيشه في واقعنا، وهذا يخلق عند الطفل حالة من التناقض والصراع بين ما هو مقبول وبين ما هو غير مقبول»[1].

٣- الآثار النفسيّة والصحيّة:

» تؤدي كثرة مشاهدة هذه البرامج، والجلوس لها أوقاتًا طويلة، أو بجلسات غير صحّيّة إلى العديد من المشاكل السمعية والبصرية، ومشاكل السمنة، وضعف الجهاز الحركي والهيكلي، إضافة إلى المشاكل العقلية، كتأخر الكلام والتأخر في التحصيل المدرسي، والسلوك العدواني، واللامبالاة العاطفية، كما تؤثر مشاهد العنف على النمو الدماغي والعاطفي بالتحديد.

» تؤثر أفلام الكرتون سلبًا في حال عدم مناسبتها للفئة العمرية للمشاهدين، من خلال احتوائها على عنف أو مشاهد رعب، أو حتى معلومات غير مناسبة، فالأصل أن برامج الأطفال يختص كلٌّ منها بفئة عمرية محددة.

تقوم العديد من برامج الرسوم المتحركة على فكرة تصارع الآلهة، ليقوم كل إلهٍ بإدارة جزء من الكون، ناهيك عن وجود آلهة للشر تحرك الأشرار وتقودهم للتدمير والخراب ونشر الفساد في الأرض!

٤- الآثار والمخاطر العقدية:

من أخطر الآثار السلبية التي تترتب على الرسوم المتحركة: ما يتعلق بالجانب العقدي منها، ومع أن أول الضروريات التي يحرص الإسلام على حفظها وصيانتها هو الدين، فإنَّ أول ما تلوّثه الرسوم المتحركة هي العقيدة ومفاهيم الدين. ويتمثل ذلك في التالي:

» تقوم العديد من برامج الرسوم المتحركة على فكرة تصارع الآلهة، أو تخصص الآلهة ليقوم كل إله بإدارة جزء من الكون، وهذه الآلهة تُجسَّم بصور رجال ضخام الجسم، أو نور في السماء، وغير ذلك.

ناهيك عن وجود آلهة للشر تحرك الأشرار وتقودهم للتدمير والخراب ونشر الفوضى والقتل، ثم إعادة من قُتل منهم إلى الحياة، ليكمل دوره في الفساد في الأرض!

» نشر الشرك بالله تعالى، من خلال تقديم الطقوس للأصنام، أو المظاهر الطبيعية أو ما يسمونه (الطبيعة الأم)، أو لبعض الشخصيات.

» تصوير أمور الغيب (كالآلهة والملائكة)، وأحيانًا بطرق غاية في الابتذال والسخرية. وطغيان المعاني المادية والتعليق بها، وجعلها محور الاهتمام.

» إضعاف العقيدة بالله والتعلق به، من خلال ما تعرضه تلك الرسوم من اللجوء إلى القوى الخارقة، والتعلق بالمخلوقات لتحقيق الأماني، والقيام بالطقوس الشركية، وتقديس الرموز الوثنية، وتقديم القرابين لها.

» تكريس الإيمان بالسحر والشعوذة والقدرات الخارقة، وتزيينها والإغراء بها، وإظهار السحرة أنّهم قادرون على كل شيء، وأنّ السحر وسيلة للضرر أو لحل المشكلات.

» انعدام أي أثر للمظاهر والشعائر الإسلامية؛ في تكريس لفصل الدين وأحكامه عن الحياة وقضاياها. وإن وجدت فإنّها تكون محصورة بغير المسلمين فلا يظهر الحجاب إلا على راهبة، ولا تظهر الصلاة إلّا في معابدهم، أو تصوّر بطريقة تصم المتمسكين بالدين من المسلمين بأوصاف أو أدوار سلبية.

» نشر العديد من عادات غير المسلمين كالانحناء، ولبس القلائد المرتبطة بمعتقداتهم أو طقوسهم، أو التي تحمل صور المعظَّمين لديهم، والاحتفال بأعياد ليست من أعيادنا (كعيد الحب، والأم، ورأس السنة)، وإشاعة الألفاظ المحرَّمة في ديننا.

إن أخطر ما يتوقع أن تجلبه هذه البرامج: إضعاف عقيدة الإسلام في نفوس كثير من الأطفال، بحيث تتحول أمتنا إلى أمةٍ إمَّعةٍ بلا هوية أو قضية أو هدف، تسير حيث يسير الركب.

(١) أفلام الكرتون العنيفة هدم لشخصيات الأطفال، غدير سالم، صحيفة الرأي، تاريخ ٢٤-٩-٢٠١٨م.

يصاحب هذا غفلة الوالدين عن متابعة ما يتلقاه أبناؤهم؛ فيتُوه الطفل في عالم من المخاطر العقدية التي لا يستطيع الفِكاك من إشكالاتها، فيصارع الطفل بين ما يتلقاه من عالم أفلام الكرتون وبين ما يتلقاه من والديه فيعيش صراعًا لا يستطيع الفكاك منه، وكثيرًا ما يترك بصماته على شخصيته.

من أخطر الآثار العقدية للرسوم المتحركة: إضعاف العقيدة بالله والتعلق به، من خلال اللجوء إلى القوى الخارقة، والتعلّق بالمخلوقات لتحقيق الأماني، والقيام بالطقوس الشركية، وتقديس الرموز الوثنية، وتقديم القرابين لها

بين القديم والحديث:

رغم سلبيات وأضرار العديد من برامج الأطفال الكرتونية إلا أنها كانت في السابق تقدم عبر القنوات الرسمية الحكومية مما يوفر نوعًا من الرقابة التربوية والثقافية عليها، أما اليوم فهناك الكثير من القنوات التي لا تخضع لرقابة ولا وازع، فلم يعد فيها حذف للمقاطع المخلة، أو تعديل للحوار أثناء الترجمة، مما يجعل الأولاد يطلعون على كم هائل مما يخل بالدين والأخلاق.

كما أن غالب برامج الأطفال الكرتونية السابقة كان مأخوذًا من الروايات والقصص العالمية وفيها كثيرٌ من المشاعر والعواطف الإنسانية التي تحدث تأثيرًا عميقًا في الأطفال وتحثُّ على الخير ومساعدة الآخرين وتجسّدُ الأخلاق الإنسانية بالعموم، وملامح شخصياتها عادية أقرب للحقيقة، أمّا برامج الأطفال اليوم فغالب شخصياتها معقدة، تحمل أشكالًا غريبة مشوهة الملامح غريبة الأطوار، ومحورها يدور حول العنف والضرب والقتل والقتال بحركات سريعة وتشويش بصري وسمعي يتعب المشاهد ويرهق العقل بدلًا من الشعور بالمتعة والهدوء.

من القائم على صناعة برامج أطفالنا؟

من خلال ما تقدّم يتبين أن غالب القائمين على هذه البرامج المؤثرة في حياة أبنائنا ليسوا من بني جلدتنا، ولا يتكلمون لساننا، ولا يعتنقون ديننا، ولا ينتمون لثقافتنا في غالب من الأحيان، فهم يكتبون ويؤلفون ويرسمون ويصنعون ما يوافق مفاهيمهم وعاداتهم وأخلاقهم ومناهجهم وأساليب حياتهم المختلفة تمامًا عن حياة المسلمين، إن لم نقل إنهم يصَدِّرون لأبنائنا أمورًا سلبية للتأثير فيهم أو إفسادهم؛ فأفلام الكرتون في غالبها من صناعة شركات أمريكية أو غربية أو يابانية عليها طابع تلك المجتمعات في مختلف مناحي الحياة.

ماذا يمكننا أن نفعل؟

لنعترف أولًا أن هناك مشكلة تكمن في عدم تخصيص الآباء والأمهات أوقاتًا لأبنائهم، يجلسون معهم، يحاورونهم يعلمونهم ويستمعون إليهم، ومن ثمّ اتجه كثيرٌ من الأطفال إلى وسائل التسلية من كرتون وألعاب فيديو وغيرها من الأمور التي تكون بديلًا لهم عن اهتمام الأهل. والمشكلة الأكبر أن الآباء لا ينتبهون لنوع المحتوى المعروض لأبنائهم، وحتى وإن انتبهوا فإن ضعف الإنتاج المرئي الذي يُراعى فيه البُعد الإسلامي يقلل خياراتهم فيما يتعلق بالحلول الأيسر للتخلص من شغب الأطفال وحركتهم الزائدة.

لذا كان من الواجب أولًا على الأسرة: التعرف على ما يشاهده الأبناء قبل إلقاء الأطفال إليها تُعلمهم كما شاءت، وأن يوفّروا لأطفالهم أسلوب حياة متوازن يشمل جميع الجوانب بما في ذلك مشاهدة الرسوم المتحركة، ما يوجب على الآباء التحكم والحد من الوقت الذي يقضيه الأطفال في مشاهدة التلفزيون أو استخدام الكمبيوتر.

كذلك يجب على المجتمع المسلم تبني مشاريع إنتاج مواد كرتونية ذات جودة عالية، وبُعدٍ ديني وقيمي وأخلاقي، وفيها إبهار وتشويق وحبكة وتسلية وأخلاق. فهذه لا تقل بحال عن مواقع ومنصات صناعة الوعي، فإذا لم يكن لدينا اهتمامٌ بالنشء، فلا ننتظر مستقبلًا أفضل مما نعيشه[١].

لذا «كانت أهم توصيات المنتدى الإعلامي الخليجي حول التلفزيون وحقوق الطفل (١١-١٣/شباط/٢٠٠٢م): تفعيل دور المؤسسات الإعلامية الخليجية ودعمها بشريًا وماديًا من أجل إنتاج برامج تلبي احتياجات أطفال الخليج الثقافية والعلمية والاجتماعية والعمل على إنشاء قناة خليجية متخصصة للأطفال، وشركة خليجية عربية لإنتاج الرسوم المتحركة والأفلام الموجهة للأطفال والمراهقين التي تعكس الحياة المعاصرة التي تتناسب مع عاداتنا وتقاليدنا»[٢].

ومن الحلول التي يمكن أن نسعى لها (أفرادًا ومؤسسات) لتأمين بديل لأطفالنا عن هذه البرامج والقنوات:

- إيجاد وتأسيس القنوات الملتزمة الهادفة التي تقدم المفيد والنافع.
- توعية الأولاد بأسس اختيار النافع والمفيد من القنوات ليتعلم انتقاء المناسب من قنوات وبرامج الأطفال.
- تفعيل تجربة المسرح الملتزم ومسرح الدمى في المدارس والمعاهد والمؤسسات والمحاضن التربوية.
- العروض السينمائية الجماعية الهادفة باختيار أفلام كرتون هادفة ومناسبة وعرضها على جموع الأطفال في أماكن تجمعاتهم.
- اختيار قنوات (يوتيوب) مفيدة تقدم العلم والمعرفة وتحرص على غرس القيم والمبادئ والأخلاق الإسلامية في نفوس أبنائنا ونشرها والدلالة عليها، لتحل محل القنوات ذات المحتوى الرديء والتافه.
- الإكثار من الأنشطة الجماعية والألعاب الحركية التي يحبها الأطفال ويتمتعون بأدائها في تجمعات الأطفال وفي لقاءاتهم.

دور الأهل للحد من سلبيات أفلام الكرتون:

للأهل دور مهم في تقليل التأثير السلبي لأفلام الكرتون في الأطفال، وذلك يتمحور حول ما يأتي:

١. تحديد وقت معيّن لمشاهدة أفلام الكرتون بحيث لا يؤثر على أداء باقي الواجبات اليومية للطفل، حيث تنصح البحوث والدراسات بتقليل أوقات مشاهدة الأطفال لهذه البرامج. فالأكاديمية الأمريكية لطب الأطفال لا تشجع على مشاهدة الأطفال للبرامج التلفزيونية عندما يكونون دون السنة والنصف أو السنتين من العمر. وبين السنتين إلى خمس سنوات فإنّ مشاهدة الأطفال تقتصر على ساعة واحدة يوميًا من البرامج عالية الجودة والفائدة وليس أي برامج كرتونية[٣].

٢. توضيح أسباب عدم تأثر الشخصيات الكرتونية بالصدمات، وشرح التأثير الفعلي لتلك الحوادث، وأنّ ذلك ينطبق فعليًا على تلك الشخصيات.

(١) خطر قنوات الأطفال الفضائية وأفلام الكرتون، مقال لميّ محمد، في مجلة المجتمع، نقلاً عن مقطع مصور للدكتور مصطفى أبو سعد.
(٢) القيم المتضمنة في أفلام الرسوم المتحركة «دراسة تحليلية» د. عليان عبد الله الحولي، ص (٢١٩).
(٣) مقالة: وقت الشاشة، كيف ترشد طفلك، موقع مايو كلينك (باللغة الإنجليزية). Screen time and children: How to guide your child

دور الأهل للحدّ من سلبيات الرسوم المتحركة

٣. التقيد بالحد الأدنى للعمر الخاص بمشاهدة بعض الرسوم المتحركة.

٤. التحكم بالمحتوى المراد عرضه -إن أمكن- قبل السماح للطفل بمشاهدته.

٥. التحكم باختيار الرسوم ذات المحتوى المفيد للأطفال.

خطر جديد:

إن الأخطار التي تحيط بأولادنا اليوم لا تقتصر على برامج الأطفال الكرتونية فهناك أخطار جديدة أحدقت بهم وينبغي التنبه لها والحذر منها فشبكات التواصل الاجتماعي مليئة بالتطبيقات التي تقدّم البرامج المرئية والمسموعة وتسعى لكسب الشهرة وكثرة المشاهدات والإعجابات بما تنشره من محتويات تافهة ومنحرفة، وتنهج أساليب عديدة لجذب المشاهدين، أصبحت تحيط بهم من كل جانب مع هزالة في المحتوى وسوء في الأداء؛ إذ لا يخضع المعروض لرقابة تقوم اعوجاجه وتبين خطأه من صوابه.

فمن الملاحظ أن الأطفال بدؤوا يميلون إلى قنوات اليوتيوب –مثلًا– واتخذوها بديلًا عن القنوات الفضائية في كثير من الأحيان، وهذا الأمر يحتاج إلى دراسة واعية تسبر أغوار هذه القنوات وتبين ما فيها من مناسب لأبنائنا أو غير مناسب لهم، وتخبرنا عن النافع المفيد من هذه القنوات حتى نرغِّبَ به أبناءنا وندلهم عليه.

وفي الختام: أبناؤنا مسؤوليتنا، ولن نُضَيِّعَهم:

أبناؤنا أمانة في أعناقنا ومن مقتضيات هذه الأمانة أن نرعاهم رعاية تامة، وكما نهتم بهم جسديًا وصحيًا فنحرص على غذاء أبدانهم وأجسادهم، ونمنعهم ونبعدهم عن كل ما يؤذيهم؛ لابد أن نهتم بحفظ أخلاقهم وقيمهم وثقافتهم، بإبعادهم عن كل ما يؤذي أخلاقهم وعاداتهم، فلا ينبغي أن نتركهم لقنوات الأطفال وبرامجها التي عرفنا ما فيها من سلبيات وأضرار ، ولا بد لنا أن نسعى لإيجاد البدائل المناسبة والمفيدة لأطفالنا ، بدائل مناسبة لأعمارهم ، ومهاراتهم وقدراتهم، نشاركهم فيها ونزرع فيهم الوعي الذي يميزون فيه الخبيث من الطيب الذي تحتويه هذه البرامج، ونخصص لهم جزءًا من أوقاتنا لمشاركتهم في ألعابهم وأنشطتهم البدنية والذهنية، وممارسة هواياتهم المفيدة، نعودهم من خلالها على مكارم الأخلاق ونغرس فيهم حب العلم وعمل الخير والسعي إلى معالي الأمور والبعد عن سفاسفها، ولنصاحبهم في صغرهم ليصاحبونا في كبرنا.

تأصيل

نظرات في السنن الربانية

د.حسان نقرش (*)

للسنن الربانية خصائص لا بد من معرفتها؛ لما لها من أهمية كبرى وفوائد عظيمة، ولأن الفقه بهذه السنن هو الوسيلة الأهم في بناء الإنسان وإصلاحه وحُسن خلافته في الأرض، كما أنها مقدمة لكثير من العلوم الإنسانية؛ فعوامل ازدهار الحضارة وموانع سقوطها، وقيام المجتمعات على أسس سليمة ورسوخ القيم فيها؛ مرهون بحسن فهم هذه السنن والتعامل معها، وهو ما سيلقي المقال الضوء عليه.

قدَّر الله تعالى أحوالَ الخلائق وصرّف شؤونها وفق منظومة متكاملة من القوانين والنَّواميس القَدَرية والشرعية، تقوم على ارتباط الأسبابِ بمسبَّباتها، والنتائج بمقدماتها، تلك المنظومة التي جعلها سبحانَه وتعالى علامةً ودِلالة على وحدانيته واستحقاقه للعبودية الحقَّة، فقال عز وجل: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢٣].

وقد ورد مُسمَّى «السُّنن» في الكتاب والسنة، واستعملَ أهلُ العلم هذا المصطلح، حتى غدا عَلَمًا قائمًا بذاته، يمكن استعراض أهمّ ملامحه فيما يلي:

> **السنن الرَّبَّانية هي طرائق الله تعالى الثابتة المطَّردة في تدبير شؤون الكون، والحياة، وإجراء القَدَرِ بما تقتضيه حِكمتُه.**

المقصود بالسنن الربانية:

السنة في **اللغة**: تأتي بمعاني: العادة والعرف والدَّيدَن، والدِّين والطريقة والمنهج، والأمة، والجِبِلَّة، والاستمرار.

وهذه المعاني تشترك كلها في معاني الثبات والديمومة والاستمرار.

وأما السنة الرَّبَّانية في **الاصطلاح** فيمكن تعريفها بأنها:

(*) دكتوراه في الدعوة والثقافة الإسلامية.

طرائق الله تعالى الثابتة المطردة في تدبير شؤون الكون، والحياة، وإجراء القَدَرِ بما تقتضيه حِكمتُه.

أو: طرائقه الثابتة المطردة في تدبير شؤون خلقه وفق حكمته[1].

خصائص السنن الربانية:

للسنن الربانية خصائص لابد من معرفتها لحُسن فهمها والتعامل معها، ويمكن إجمالها في الخصائص التالية: الربانية، والعموم والشمول، والثبات والاطِّراد، والاستمرار والديمومة، والعدل والحكمة، والتكامل وتبادل التأثر والتأثير.

وفيما يلي تفصيل كل خصيصة منها:

الأولى: الربانية:

فالنظرة لهذه السنن تنطلق من أن الله تعالى هو خالقُ كلِّ شيء، خالق سائر المخلوقات والمتصرف في حركاتها ونظامها، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

وهو سبحانه المُدَبِّرُ لشؤونها وأحوالها وقوانين حركتها، كما بين ذلك بقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [سورة الأعراف: ٥٤]، وقوله سبحانه: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ۝ ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٥-٧].

وهذه المنظومة مرتبطة بعِلمه وخِبرته وحِكمته سبحانه وتعالى، مَشيئةً وإرادة وخلقًا وتقديرًا، كما قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وتنبثق من الإيمان به تعالى خالقًا مالكًا متصرفًا في هذا الكون.

إن خصيصة الربانية هي الميزة المحورية من خصائص سنن الله، إذ إن الخصائص الأخرى للسنن تنبثق عنها وتتفرع عنها، قال سبحانه وتعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣].

السنن الربانية عامة وشاملة، تنطبق على كل ما هو موجود في الكون دون استثناء، لأنها جميعًا من مخلوقات الله تبارك وتعالى وبديع صنعه

الثانية: العموم والشمول:

إن مما يُميّز السنن الربانية عن غيرها من القواعد العامة والأصول الكلية أنها تشمل جميع الأفراد الذين ينطبق عليهم محل القاعدة ومقتضياتها دون استثناء، ولكون سنن الله تبارك وتعالى من خلقه وبديع صنعه فلا شك أنها ستكون شاملة لجميع مخلوقاته التي تنطبق عليهم، فالكُلُّ أمامَ سنن الله سواءٌ، فسنة تعاقب الليل والنهار مثلًا -باعتبارها سنة كونية - تشمل كلَّ ما هو موجود على سطح الأرض من إنسان وجماد وحيوان ونبات، وكذلك غليان الماء عند درجة مائة، وتجمده عند درجة الصفر، وهو شامل لكل من يتعامل معه مهما كان.

وقيمة العدل مثلًا -باعتبارها سنة مجتمعية- تنطبق على جميع أشكال التجمع البشري دون تمييز لجنس أو لون أو دِيانة، يقول ابن خلدون رحمه الله: «الظُّلمُ مُؤذِنٌ بخرابِ العُمران»[2].

وقاعدة أن المعصية سبب للعقوبة مثلًا -باعتبارها سنة شرعية- تنطبق على الناس جميعًا، أو على جميع أفراد الفئة المُتَلَبِّسَة بالمعصية، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣]، وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

«السنن الربانية ثابتة مطّردة، «ومن هذا الباب صارت قصصُ المتقدمين عبرةً لنا، ولولا القياس واطِّراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها. والاعتبار إنما يكون إذا كان حكمُ الشيء حكمَ نظيره، كالأمثال المضروبة في القرآن، وهي كثيرة»

ابن تيمية رحمه الله

(١) ينظر: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشرعية الإسلامية، لعبد الكريم زيدان، ص (١٣). ومفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامي/السيد محمد رشيد رضا نموذجًا، لحازم محيي الدين، ص (٣١)، وسنة الله في عقاب الأمم في القرآن الكريم، لعبد السلام الشريف، ص (٥).

(٢) مقدمة ابن خلدون (٢٨٦).

الثالثة: الثبات والاطِّراد:

إن سُنَنَ اللهِ تبارك وتعالى لا تتبدل ولا تتحول ولا تتغير، تجري على كل الوقائع والمواقف التي تقوم الأسباب فيها بمسبَّباتها وتتوقف المعلولات فيها على عِلَلِها، ولولا ذلك لما صحَّ التعامل بها في السنن الكونية، ولما صح طلب الاعتبار بها في السنن الاجتماعية والشرعية، قال ابن تيمية رحمه الله: «ومن هذا الباب صارت قصصُ المتقدمين عبرةً لنا، ولولا القياس واطِّراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها. والاعتبار إنما يكون إذا كان حكمُ الشيء حكمَ نظيره، كالأمثال المضروبة في القرآن، وهي كثيرة»[1].

فالسنن تجري على الجميع متى ما توفرت شروطُ جريانها، كما جرت على الأولين لأنه توفرت شروط جريانها عليهم بإرادته وحكمته سبحانه، يقول القرطبي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]: «أي أجرى اللهُ العذابَ على الكفار، ويَجعلُ ذلك سنةً فيهم، فهو يعذب بمثله مَن استحقه، لا يَقدر أحدٌ أن يبدِّلَ ذلك، ولا أن يحول العذاب عن نفسه إلى غيره»[2].

وقد أوضح ابن تيمية رحمه الله الفرق بين لفظي «التبديل» و «التحويل» بقوله: «فالتبديل أن تبدل بخلافه، والتحويل أن تحول من محل إلى محل»[3].

الرابعة: الدَّيمومَة والاستمرار:

سبقت الإشارة عند التعريف اللغوي للسنن أن معانيها اللغوية تشترك في الاستمرارية والدوام، فهي لا تتحول مِن مكان إلى مكان، ولا تتبدل مِن مقام إلى مقام، ولا تتخلف مِن زمان إلى زمان، وهذه الصفة للسنن هي مقتضى خصيصتي العمومِ والثباتِ مِن جهتين:

الجهة الأولى: أنها مستمرة دائمة في الحدوث والتكرار؛ لأنها عامة شاملة.

الجهة الثانية: أنها مستمرة دائمة على صفة وهيئة الحدوث نفسها؛ لأنها ثابتة مُطَّردة.

وهاتان الجهتان هما محل الاعتبار والاتِّعاظ.

وهذه الاستمرارية للسنن لها صور:

- **استمرارية مطلقة:** يعني ثابتة من كل وجه فهي دائمة، كالنواميس الكونية الجارية، كشروق الشمس من المشرق وغروبها من المغرب، وتعاقب الليل والنهار، وتعاقب الفصول الأربعة وغيرها من السنن الكونية.
- **استمرارية نسبية:** فهي دَورية لكنها ليست مستمرة أو غير منتظمة، كبعض الظواهر الطبيعية من مواسم المطر والثلوج وحركة الرياح والأعاصير وغيرها من السنن الكونية.
- **استمرارية مقيدة** «بوقت محدد»، يُقَدِّره سبحانه وتعالى بعلمه وإرادته، كالكسوف والخسوف والزلازل والبراكين، وكالسنن الخارقة بإذن الله عز وجل من مُعجِزَاتٍ لأنبيائه عليهم الصلاة والسلام أو كراماتٍ للأولياء من عباده.

> **العدل نظام الوجود، وقاعدة الحياة وركنها. قامت به السماوات والأرض، وجعل سبحانه استقرارَ الأرض ومتاعَها معلَّقَين على العدل، قال سبحانه:** ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

الخامسة: العدل والحكمة:

مِن الأُسُس العظيمة التي قام عليها مَلَكوت السماوات والأرض العدلُ والحكمةُ، فخلقُ الله سبحانه لجميع المخلوقات كان مقرونًا بحكمته كما هو مقرونٌ بعلمه جل وعلا، وارتباطه بحكمته يقتضي اشتمالَه على الغاية المحمودة المطلوبة للرب سبحانه، ويعني أيضًا وقوعَه على أكمل الوجوه وأحسنها. وقد وصف الله تبارك وتعالى نفسه في مواطن كثيرة بالحكمة: ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿وَاسِعًا حَكِيمًا﴾.

فالعلاقة بين المخلوقات بعضهم مع بعض قائمة على العدل والحكمة[4]، وتعامله مع خلقه سبحانه وتعالى من جهة أخرى قائم على العدل والحكمة؛ فالعدل قامت به السموات والأرض، إذ

(١) جامع الرسائل والمسائل، لابن تيمية (٥٦/١).
(٢) تفسير القرطبي (٣٦٠/١٤).
(٣) جامع الرسائل والمسائل، لابن تيمية (٥٥/١).
(٤) ويدخل في ذلك ما يسمى بالتوازن البيئي بين المخلوقات مِن حيوانات ونباتات، وبين الظواهر الكونية مِن أمطار وزلازل وبراكين، وأوبئة، وخصوبة ووفرة إنتاج... إلخ.

ثمرات معرفة السنن الربانية

هو نظامُ الوجود، وقاعدةُ الحياة الدنيا وركنها. وجعل سبحانه استقرارَ الأرض ومتاعَها معلَّقين على العدل، قال سبحانه: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩].

فسنن الله الكونيةُ والشرعيةُ مبناهما على الحكمة والعدل قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]

قال ابن القيم رحمه الله: «فإن أقوالَه كلَّها صِدقٌ ورشد وهدى وعدل وحكمة، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ وأفعاله كلها مصالح وحِكَم، ورحمة وعدل وخير»[١].

فبمقتضى العدل والحكمة يُسوى بين النَّظير ونظيره وبين الشبيه وشبيهه في الحكم، كما أكد على ذلك ابن تيمية رحمه الله بقوله: «والاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره، كالأمثال المضروبة في القرآن، وهي كثيرة»[٢].

السادسة: التكامل وتبادل التأثر والتأثير:

«السنن الإنسانية تعمل في حياة الأمم خصوصًا والأفراد عمومًا بصورة متشابكة، فهي منظومة واحدة، وليس الأمر كذلك في سنن الكون المادي؛ أي أن السنن المتعلقة بالإنسان لا تصح تجزئتها، ولا أن تفسر بالعامل الواحد... -وإن بدت سننًا مختلفة في ظاهرها- فللنصر والهزيمة سنن، ولحصول البركات والأمن سنن، وللعقوبات سنن ثالثة... إلا أن بينها تكاملًا وتبادلًا في التأثر والتأثير، بحيث لا تُحسَم نتيجةُ سُنةٍ منها دون مراعاة أثر السنن الأخرى»[٣].

فعلى مستوى السنن الكونية والاجتماعية هناك تكامل بين السنن، وفي السنن الشرعية كذلك، ومن الأمثلة: أن من سنن الله في خلقه سنة الابتلاء، لكن أسبابها متنوعة، فمنها ما يكون عقوبةً، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، ومنها ما يكون رحمةً واصطفاءً، ففي الحديث عن سعد ﷺ يقول: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ: (الأنبياءُ، ثمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَل، فَيُبتَلَى الرّجل على حَسَبِ دِينه)[٤].

(١) مدراج السالكين، لابن القيم (٤٤/١).
(٢) جامع الرسائل والمسائل، لابن تيمية (٥٥/١).
(٣) سنن الله تعالى في الأمم من خلال آيات القرآن، للدكتور حسن الحميد، ص (٢٨).
(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨).

ومن الأمثلة أيضًا: التداخلُ بين سُنَّةِ إمهال الظالم وسنة أخذه بظلمه، وغير ذلك من الأمثلة الكثيرة.

> **معرفة السنن تؤدي لمعرفة العبد بربه بدلالة سننه عليه، وتعينه على حسن التعامل مع محيطه، وبالنظر والتفكر والتدبّر فيها ترشده لامتثال أوامره فتكون سببًا لزيادة الإيمان**

أهمية معرفة السنن الربانية:

لمعرفة الإنسان بالسنن الربانية فوائد كبيرة، ولعل من أهمها:

١. أن معرفتها تؤدي لفهم الإنسان للكون مِن حوله، وفهم طبائع الأشياء:

مما يؤدي لحُسن التعامل معها وسلوك الطريق الصحيحة للاستخلاف في الأرض وعمارتها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وبالفقه للسنن الكونية المادية والوقوف على حقيقة هذه الأشياء يجتمع للأمة انتفاعان؛ الأول: الانتفاع بها في شؤون الدنيا على أكمل وجه، كالاستفادة من خواص الكهرباء والتيار والحديد، وغيرها. والثاني: الدلالة على فاطر الكون، وحصول عبادة الله تعالى وخشيته، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨].

٢. معرفة الله تعالى بدلالة سننه عليه:

فهذه السنن براهينُ وأدلةٌ على ذات الله وربوبيته وأسمائه وصفاته. يقول الإمام ابن القيم رحمه الله في بيان الدرجة الثانية من درجات الغِنَى بالله عز وجلّ: «ويَشهدُ نزولَ الأمرِ والمراسيمِ الإلهية إلى أقطار العوالم كلَّ وقتٍ بأنواع التدبير والتصرف -من الإماتة والإحياءِ والتَّولِيَةِ والعَزلِ والخَفضِ والرَّفع والعَطاءِ والمنع وكَشفِ البلاءِ وإرسالِه وتَقَلُّب الدول ومداولة الأيام بين الناس- إلى غير ذلك مِن التصرف في المملكة التي لا يتصرف فيها سواه، فمراسمه نافذةٌ كما يشاءُ ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] فمن أعطى هذا المشهدَ حقَّه معرفةً وعُبوديةً استغنى به»[(١)].

٣. الامتثال لأمر الله تعالى بالتَّفكُّر والنَّظر:

ففي تَفقُّه الإنسان في هذه السنن امتثالٌ لأوامره سبحانه بالتفكر والنظر في مخلوقاته، هذا التفكر مِن الدين والواجبات الشرعية؛ لأن معرفتها نابعةٌ من معرفة الله تعالى والإيمان به، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠] والنظر في أحوال مَن سَبقَ مِن الأقوام السالفة، ومنها قوله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

والأوامر الشرعية بالنظر والتفكر والتدبر أكثر مِن أن تحصى في القرآن الكريم والسنة النبوية.

والوقوف على تلك السنن والأحوال، وعلى حِكَم الباري جل في علاه في تدبيره للخلائق، والاعتبار بها مِن القربات الجليلة ومن أبواب الطاعات العظيمة، ومن أسباب زيادة الإيمان.

> **لعل الحكمة من الاعتبار هي اكتشاف السنن الحاكمة لحركة حياة الإنسان ودورة حياة المجتمعات والحضارات، وقوانين الاجتماع البشري**

٤. الاتِّعاظ والاعتبار:

فالسعيُ لتحقيق الاعتبار بالنظر في سُنَنِهِ جل وعلا، والوقوفُ على مواطن العِبَر والهدايات فيها، فيه استجابةٌ لتوجيهات الشارع في إمعان النظر وإدامة التَّفكُّر في تلك السنن، حيث جعلها الله آياتٍ وعلاماتٍ على أحقيته بالعبودية سبحانه، يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن القيم، ص (٤٣).

وجعلها سبحانه آيةً على صدق أنبيائه عليهم الصلاة والسلام فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يوسف: ١١١].

وكما بيَّن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقال: «السنة هي العادة التي تتضمن أن يفعلَ في الثاني مِثلَ ما فعل بنظيره الأول، ولهذا أمر الله سبحانه وتعالى بالاعتبار»(١).

ولعل الحكمة من الاعتبار هي اكتشاف السنن الحاكمة لحركة حياة الإنسان ودورة حياة المجتمعات والحضارات، وقوانين الاجتماع البشري.

والتاريخ البشري مليء بأعظم العِبَر والأمثلة على ذلك، منها سُنَّةُ التداول، مصداق قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، فما زالت الدول تنهض وتسقط من بدايات التاريخ البشري وحتى وقتنا المعاصر، كما بيَّن ذلك ابن خلدون رحمه الله؛ حيث عنون للفصل بـ «في أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص»، ثم بيَّن أن الحضارات والأمم لها أعمار كما للأشخاص، وأنه لا بد لكل أمة من أجل تنتهي فيه هيمنتها(٢).

التاريخ البشري مليء بأعظم العِبَر، ومن ذلك سُنَّةُ التداول؛ فما زالت الدول تنهض وتسقط، والحضارات والأمم لها أعمار كما للأشخاص، ولا بدَّ لكل أمة من أجل تنتهي فيه هيمنتها

٥. العلمُ بالسنن الرَّبانية مصدرٌ للهداية والإرشاد لأهل الإيمان والطاعة:

وذلك من خلال الوقوف على صنوف تدبير الخالق للمخلوقات، فقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَاب﴾ [آل عمران: ١٩٠].

قال الشيخ جمال الدين القاسمي رحمه الله: «(لَآيَاتٍ) أي: لأدلة واضحة على الصانع وعظيم قدرته، وباهر حكمته. والتنكيرُ للتَّفخيم كَمًّا وكَيفًا، أي: كثرة عظيمة. (لِأُولِي الْأَلْبابِ) أي: لذوي العقول المَجلُوَّة بالتزكية والتَّصفية بملازمة الذِّكر دائمًا»(٣).

ومِن خلال شُهودِ تصريفه عز وجل أحوالَ الأمم السابقة، كما قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧-١٣٨].

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٢٠/١٣).
(٢) مقدمة ابن خلدون، الفصل الرابع عشر (١٧٠).
(٣) محاسن التأويل، للقاسمي (٤٨٠/٢).

قال ابن سعدي رحمه الله: «﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ أي: دلالة ظاهرة، تبين للناس الحقَّ من الباطل، وأهلَ السعادة من أهل الشَّقاوة، وهو الإشارة إلى ما أوقع الله بالمكذبين. ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم هُمُ المُنتفعونَ بالآيات فتَهديهم إلى سبيل الرَّشاد، وتَعِظُهُم وتَزجُرُهم عن طريق الغَيّ»[1].

ومن خلال معرفة هدي الأنبياء السابقين. يقول سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦].

قال ابن سعدي رحمه الله في تفسير الآية: «أي: الذين أنعَمَ اللهُ عليهم من النبيين وأتباعهم، في سِيَرِهم الحميدة، وأفعالهم السديدة، وشمائلهم الكاملة، وتوفيقهم التام. فلذلك نفذ ما أراده، ووضَّح لكم وبيَّن بيانًا كما بيَّن لمن قبلكم، وهداكم هداية عظيمة في العلم والعمل»[2].

> **ما من عصر من العصور أخذ المسلمون فيه بأسباب التمكين، إلا ومكَّنهم الله سبحانه في الأرض وأقام سلطانَهم ودولتَهم ابتداءً بدولة الإسلام في عهد النبي ﷺ، مُرورًا بالخلافة الراشدة إلى آواخر الدولة العثمانية**

٦. التفقه بالسنن الربانية يُوْرِثُ البصيرةَ في الدعوة إليه.

لقد أرشدنا الشارعُ الحكيمُ للتبصُّر بالسنن الربانية، والاهتداء بها، لِما فيها من رعايةٍ لنظام الحياة الذي أراده سبحانه لمخلوقاته، وأوجب علينا الانقيادَ لسننه وأقداره، والاسترشادَ بأحوال الأمم السالفة ومآلاتها في بيان صوابها أو خطئها، لما فيه صلاح معاشنا وأحوال مجتمعاتنا. فهي «هُدًى لهم لينتزعوا المسببات من أسبابها، فإن سبب النجاح حقًا هو الصلاحُ والاستقامة، وهي موعظةٌ لهم ليحذروا الفساد»[3]. لذلك كان العملُ بفقه السُّنَنِ مُندرجًا تحت باب الأخذ بالأسباب.

ومن صور ذلك التَّبصُّر: البصيرة بسنة تعلُّق التمكين الشرعي للمؤمنين في الأرض على الأخذ بأسبابه وشروطه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، فما من عصر من العصور وقد أخذ المسلمون فيه بأسباب التمكين من عبادة الله وتحكيم شرعه والدعوة إليه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجتماع الكلمة ووحدة الصف، والتعاون على البر والتقوى، إلا ومكَّنهم الله سبحانه في الأرض وأقام سلطانَهم ودولتَهم ابتداءً بدولة الإسلام في عهد النبي ﷺ، مُرورًا بالخلافة الراشدة إلى آواخر الدولة العثمانية، وما حالةُ الضعف والهَوان والشِّقاق والنِّزاع والفُرقة واللَّهَثِ وراءَ الغَرب التي تَسود بلدان العالم الإسلامي حاليًا إلا نتيجة لعدم أخذ المجتمعات المسلمة بأسباب النصر والتمكين الشرعيين.

٧. الاطمئنان إلى تحقيق وعدِ الله وإلى عَظَمَةِ مقاصد شريعة الله:

فكل ما يجري في هذا الملكوت إنما يقع بعلم الله وإرادته، وبمقتضى حكمته وعدله، ووفق سننه وقوانينه التي أمرنا سبحانه بالاعتبار بها والاهتداء بمعالمها، قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

وذلك يُورث في نفس المؤمن عِزَّةَ الإسلام، والرِّضا بقضاء الله وأقداره، والاطمئنانَ على موعود الله، وزيادةَ إيمانه، من أمثلة ذلك: سنن الاختلاف والتدافع والتداول والتمكين وإهلاك المخالفين.

٨-استفادة الدروس الدعوية والتربوية والمنهجية:

فلا يستغني عنها طلبة العلم والدعاة والمُرَبُّون، من أمثلة ذلك ما قاله ابن عباس ﷺ: «ثماني آيات نزلت في سورة النساء هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت، أُولاهُنَّ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾»[4].

ومن الدروس المهمة لعموم الأمة وللدعاة وطلبة العلم خاصة في هذه الظروف العصيبة التي تمر

(١) تفسير السعدي، ص (١٤٩).
(٢) المرجع السابق، ص (١٧٥).
(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٩٨/٤).
(٤) تفسير ابن كثير (٢٠٤/٢).

فيها بلدان العالم الإسلامي أن نستحضر سنةً ربانيةً اجتماعيةً شرعية كونية مِن أهم السنن، وهي سنة التغيير للأفضل، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، فإن الله سبحانه وتعالى لا يغيِّرُ الحالَ المتردي لمجتمعاتنا مِن البعد عن دين الله وحالةَ الذل والاستضعاف والهوان إلى حالةِ العِزِّ والتمكين والتأييد الإلهي إلا إذا أخذنا -أفرادًا ومجتمعات- بأسباب التغيير الشرعي الحقيقي؛ من إصلاح عباداتنا، وإقامة شرع الله تعالى، وإصلاح نفوسنا وتزكيتها، والسعي لإصلاح مجتمعاتنا، والأخذ على يد الظالم والمفسد، وتعظيم شعائر الله تعالى، نسأل الله أن يصلح لنا ديننا ودنيانا وآخرتَنا، ويصلح لنا شأننا كله، ويردنا إلى دينه ردًا جميلًا.

> **لا يغيّر الله سبحانه وتعالى الحالَ المتردي لمجتمعاتنا إلى حالةِ العِزِّ والتمكين والتأييد الإلهي إلا إذا أخذنا -أفرادًا ومجتمعات- بأسباب التغيير الشرعي الحقيقي؛ من إصلاح عباداتنا، وإقامة شرع الله تعالى، وإصلاح نفوسنا وتزكيتها، والسعي لإصلاح مجتمعاتنا، والأخذ على يد الظالم والمفسد، وتعظيم شعائر الله تعالى**

٩. شكرُ الله عز وجل:[1]

باستعمال وسائل التفكير، مِن نَظَرٍ وسَمْعٍ وغيرهما، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، والوصول إلى الفهم الحقيقي لطبائع الأشياء الكونية وخواصها والعلاقات بينها، فيسير المتفكِّر على نور في فهم أمثال هذه الآيات: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. ويتعرف أكثر عن آيات الله تعالى المودعة في هذا الكون العظيم.

خاتمة:

العلم بفقه السنن الربانية يُعتَبَرُ المقدمةَ الكبرى لكثير من العلوم الإنسانية كعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم التاريخ وعلم التربية بالإضافة إلى أصول الدعوة إلى الله تعالى، مما يجعل الدِّرايةَ بهذا العلم مِن سبل إقامة نظامِ العُمران وصلاح أحوال المعاش، ومن أسباب تجنُّب مواقع الزلل ومواطن الخطأ التي أدت بالمجتمعات البشرية إلى السقوط الحضاري والدمار الاجتماعي على مر العصور. لذلك كانت الحاجة لهذا النوع من العلوم ماسَّة، والفائدة منه عظيمة.

(١) لمزيد من الاطلاع على سنن الله تعالى في الكون المادي ينظر: سنن الله الكونية، محمد الغمراوي.

قراءة في كتاب: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا لمحمود شاكر

أ.عبد القادر بن عبد الكريم العثمان(*)

رسالة من أديب مؤرخ ومحقق بارع تناول فيها أحداثاً مفصليّة في تاريخ أمتنا الإسلامية كانت سبباً في انحراف البوصلة، اعتمد فيها «منهج التذوق» الذي ابتكره بعد عقود من القراءة والبحث، حيث أطلق من خلال رسالته الدعوة للعودة إلى مكامن الثقافة الإسلامية، وأودعها خلاصة رأيه في العديد من القضايا الثقافية العربية الحديثة.

نبذة عن المؤلف:

هو أبو فهر محمود محمد شاكر، ولد في الإسكندرية في مصر عام ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م، في بيت من بيوت العلم الكبار، فأبوه الشيخ محمد شاكر وكيل الجامع الأزهر، وشيخ علماء الاسكندرية، وقاضي القضاة في السودان، وأخوه المحدث العلامة أحمد محمد شاكر رحمهما الله.

التحق بقسم اللغة العربية في كلية الآداب بالجامعة المصرية، واستمر بها إلى السنة الثانية، حين تركها لخلاف مع أستاذه الدكتور طه حسين حول منهج دراسة الشعر الجاهلي. ثم تفرغ للتأليف والتحقيق والنّشر، فحقَّقَ جملة من أُمَّهات الكتب العربية. وأصبح بيتُه مقصدَ أجيالٍ من دارسي التراث العربي، والمعنيين بالثقافة الإسلامية من مختلف أرجاء العالمين العربي والإسلامي.

اختير عضوًا مراسلاً في مجمع اللغة العربية بدمشق، وعضوًا في مجمع اللغة العربية في القاهرة، ومُنح جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ١٩٨١م، وجائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي عام ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

توفي رحمه الله تعالى في ٤ ربيع الآخر ١٤١٨هـ الموافق ٧ آب / أغسطس ١٩٩٧م.

وصف الكتاب:

يقع الكتاب في ١٨٢ صفحة من القطع المتوسط، من طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب لعام ١٩٩٧م.

(*) مدير الشؤون التعليمية في جمعية تاج لتعليم القرآن الكريم.

محتوى الكتاب:

» دراسة متعمِّقة من أديب مؤرِّخ، ومحقِّق بارع للتراث الإسلامي، سلطَ فيها الضوءَ على مدةٍ طويلة من تاريخ أمتنا الإسلامية، لا بغرض التأريخ بل لإلقاء الضوء على أحداث كانت سببًا في انحراف البوصلة، قاصدًا تنبيه الأمة للسبيل القويم الكفيل بإعادة مجدها.

» الكتاب لم يفصّل كل شيء، إلا أنه لفت الأنظار إلى منهج جديد غير مألوف هو منهج «التذوق»، وهو مباين للمناهج الحديثة التي وضع «المستشرقون» أسس الكثير منها.

» نداءٌ يوجهه عَلَمٌ من أعلام التاريخ والأدب لكل فرد من أفراد أمته؛ أن «اقرأ تاريخك بعين عربية بصيرة لا تغفل، لا بعين أوروبية تخالطها نخوة وطنية».

» وصيةٌ وتنبيهٌ، وصيحة نذير، تدعو المفكرين والأدباء للعودة إلى مكامن الثقافة الإسلامية التي نشأت في ظلال الدين، والتي أريد لها أن تُفَرَّغ من دعائم القوة فيها.

» جهْرٌ بالحق الذي هدى الله إليه مؤلفَ الرسالة، عملًا بحديث النبي ﷺ قال: (ألا لا يمنعَنَّ رَجُلاً هَيبَةُ الناس أن يقول بحقٍّ إذا عَلِمَهُ)[1].

القراءة في الكتاب:

اتبع المؤلف طريقة السَّرد في رسالته؛ فلم يقسمها إلى أبواب وفصول، بل أخذ يتحدث إلى قارئه حديثًا متسلسلاً معتمدًا على تقسيم الرسالة إلى فقرات، فوقع الكتاب في ٢٤ فقرة، ثم ختمها بتذييل ضمَّنه شهادته وشهادة أستاذه طه حسين على فساد أدب عصره وثقافته.

محاور الكتاب:

- رحلة المؤلف إلى منهج التذوق.
- الصراع بين الإسلام والنصرانية الأوروبية انتهاء بمعركة الاستشراق.
- نهضة ديار الإسلام وكيف أبيدت؟ ابتداءً من الحملة الفرنسية، مرورًا بمحمد علي ودوره في تدمير النهضة، وانتهاء بالاحتلال الإنكليزي وتدمير التعليم في مصر.
- قصة التفريغ الثقافي: فساد الحياة الأدبية وشهادتان للتاريخ.

ونتيجة للطريقة السَّردية التي سار عليها المؤلف في كتابه، فقد قسَّمت الفقرات لأربع محاور، ووضعت تشجيرًا بداية كل محور يبيّن أهم نقاطه.

> **الأصل الأخلاقي هو العامل الحاسم الذي يُمَكِّن لثقافة الأمة بمعناها الشامل، وأسلافنا منحوا هذا الأصل عناية فائقة شاملة، مما حفظ للثقافة الإسلامية ترابطها مدة أربعة عشر قرنًا**

المحور الأول: رحلة المؤلف إلى منهج التذوق:

• بداية الرحلة: عشر سنوات من الحيرة والشك والتردد:

أخرج الترمذي وأحمد بإسناد صحيح من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: (ألا لا يمنعَنَّ رَجُلاً هيبةُ الناس أن يقول بحقٍّ إذا عَلِمَهُ).

افتتح الشيخ محمود شاكر رسالته بهذا الحديث، وبَيَّن في مطلع رسالته أنه لَبِث عشر سنوات من شبابه يراقب الحياة الأدبية الفاسدة التي كانت تملأ عالم الأدب في عصره، من عام ١٩٢٦م حيث كان في السابعة عشرة من عمره، حتى بلغ السابعة والعشرين من عمره عام ١٩٣٦م، قرأ خلالها ما وقع تحت يديه من الشعر العربي بتمهلٍ وتدبر، ونظر في طريق البحث عن الحق، فأكسبته هذه المرحلة تذوقًا لَلغة الشعر.

• الاهتداء إلى «منهج التذوق» ووقفة مع الجرجاني وسيبويه:

ثم قرأ ما وقع تحت يديه من كتب السلف من تفسير للقرآن وعلومه، إلى دواوين السنة وشروحها، وما تفرّع منها من كتب المصطلح، وكتب الرجال، والجرح والتعديل، إلى كتب الفقه وأصوله، وكتب المِلَل والنِّحَل ثم كُتُب الأدب، والبلاغة، والنحو، والصرف، حتى منَّ الله عزَّ وجلَّ عليه بعد هذا بابتكار فريدٍ أسماه «منهج التذوق»، وهو تذوق الكلام العربي وما يقصد به وما وراءه من معاني، وأثناء تطوافه بتراث الأمة، وجد أن عبد القاهر الجرجاني في كتابه «الرسالة الشافية» قد سبقه إلى منهج التذوق.

(١) أخرجه الترمذي (٢١٩١).

- **وقفة مع كتاب المتنبي:**

ثم كتب كتابه «المتنبي» مبنيًا على منهجه الجديد، فجاء الثناء عليه من كافة الأطراف، حتى من أدباء المهجر، ومن بعض غير المسلمين، ومن أستاذه طه حسين، ومن الرافعي والعقاد، وكتب عنه الكثيرون.

وكان هذا الثناء سببًا في صرفه عن إتمام الكتاب، لما رآه من انشغال الناس بالمدح البراق، غير متنبهين للسبب الرئيس لتأليفه، فأراد من خلال «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» أن يكشف هذا السّر الذي بقي حبيسًا في صدره لأربعين سنة، فكتبها وجعلها بمثابة مقدمة لكتاب المتنبي، وهي آخر ما أصدره، وأودعها خلاصة رأيه في العديد من القضايا الأساسية المتصلة بمسيرة ثقافتنا العربية الحديثة.

- **الدين رأس كل ثقافة:**

ثمَّ أشار المؤلف لمكمن الخلاف مع المناهج الأدبية القائمة، مبيِّنًا فسادها من جذورها، ثم ختم حديثه بنفيسة من نفائس تجربته الرائدة ورؤيته لِحَدِّ الثقافة وهي: أن ثقافة كل أمة هي جسدها الذي يقوم به كيانها وتعرف به من بين أقرانها، ورأس كل ثقافة هو الدين بمعناه العام، والذي هو فطرة الإنسان، فالثقافة كلٌّ لا يتجزأ، وبناء لا يتبعّض.

وأن الأصل الأخلاقي هو العامل الحاسم الذي يُمَكِّن لثقافة الأمة بمعناها الشامل، وأسلافنا منحوا هذا الأصل عناية فائقة شاملة، لم يكن لها شبيه عند أمة سبقتهم، ولم يُتَحْ لأمة لحقتهم أن يكون عندها شبيه أو مقارب، وهذه العناية بالأصل الأخلاقي هي التي حفظت على الثقافة الإسلامية ترابطها مدة أربعة عشر قرنًا.

> **كان مدد اليقظة الأوربية مُستجلَبًا من علوم المسلمين، وكان السبيل إليها معرفة لسان العرب، ولا تتحقق هذه المعرفة إلا ببعث رجال يسيحون في أرض الإسلام يتعلمون اللسان ويجمعون الكتب أو يسرقونها، فكانت فكرة الاستشراق من أكبر الأهداف والوسائل، وعُرف هؤلاء باسم «المستشرقين»**

المحور الثاني: الصراع بين الإسلام والنصرانية الأوروبية وانتهاء بمعركة الاستشراق:

- **مراحل الصراع بين النصرانية والإسلام:**

بدأ بسرد تاريخي لهذا الصراع من سنة ٤٨٩ هـ الموافق ١٠٩٦م أي بعد سقوط الحضارة الرومانية، وظهور حضارة الإسلام النبيلة المتماسكة، مما دفع بالنصارى الروم -لما طردوا من الشام واتجهوا إلى أوربا- إلى العمل على تنصير السكسون ليستخدموهم في حربهم على الإسلام، ونتيجة لذلك فقد قاموا بالحروب الصليبية.

عند التأمل في الصراع الإسلامي الأوروبي نجده متجسدًا في أمرين:

أولهما: الحروب الصليبية: التي استمرت لقرنين كاملين ثم انتهت بالإخفاق وباليأس من حرب السلاح نحو قرن ونصف وذلك في عام ٦٩٠ هـ الموافق ١٢٩١م، بعد أن تركت في أنفس المقاتلين الهمج [الأوروبيين] بصيصًا من اليقظة والتنبه وبعثت في نفوسهم الشك فيما كانوا قد سمعوه من رهبانهم وملوكهم من تشويه لصورة المسلمين.

ثانيهما: فتح القسطنطينية: في يوم الثلاثاء ٢ من جمادى الأولى سنة ٨٥٧ هـ الموافق ٢٩ مايو ١٤٥٣م، والتي كانت لحظة فاصلة، حيث أيقنت النصرانية أن المواجهة المسلحة مع الإسلام لا تفيد، فاندفعت أوروبا لمعركة أطول وأقسى هي معركة الاستشراق ثم الاستعمار ثم التبشير!!

- **معركة الاستشراق وتقييم عمل المستشرقين:**

نتيجة لما سبق؛ تحددت أهداف المسيحية ووسائلها، فلم يغب عن أحد منهم قطُّ أنهم في سبيل إعداد أنفسهم لحرب صليبية رابعة، نحَّوْا فيها السلاح إلى حين، واستبدلوا سلاح العقل والعلم وحسن التدبير به، ثم المكر والدهاء والمداهنة وترك استثارة المارد الإسلامي.

كان مدد اليقظة الأوربية مُستجلَبًا من علوم المسلمين: المسطورة في الكتب أو التي حملها العلماء الأحياء، وكان السبيل إلى ذلك معرفة لسان العرب، ولا تتحقق هذه المعرفة إلا ببعث رجال يسيحون في أرض الإسلام يتعلمون اللسان ويجمعون الكتب أو يسرقونها، فكانت فكرة الاستشراق من أكبر الأهداف والوسائل، وعُرف هؤلاء باسم «المستشرقين»، وهي أهم وأعظم طبقة تمخضت

عنها اليقظة الأوروبية، وقد وهبوا أنفسهم للجهاد الأكبر الذي يغذي جهادهم الأدنى وهو الاستعمار، والتبشير، «لا تنس ما حييتَ أن هذه الثلاثة إخوة أعيان لأب واحد وأم واحدة، لا تفرق قط بين أحد منهم».

انساح المستشرقون في أنحاء العالم الإسلامي خاصة، وما هو إلا قليل حتى كان تحت يد الاستشراق آلاف من المخطوطات، فأكبوا عليها يفرزونها، ثم يطبعون بعضها لتكون تحت يد كل دارسٍ مستشرق، وينبه المؤلف للحظ مهم جدًا فيقول: «فلا تصدق من يقول لك: إن الاستشراق قد خدم اللغة العربية وآدابها وتاريخها وعلومها، لأنه نشر هذه الكتب التي اختارها مطبوعة، فهذا وهمٌ وباطل، كانوا لا يطبعون قط من أي كتاب نشروه أكثر من خمسمائة نسخة - ولم تزل هذه سنتهم إلى يومنا هذا - تُوزَّع على مراكز الاستشراق في أوربة وأمريكا، وما فضل بعد ذلك فقليل جدًا».

كانت للمستشرق صفتان لازمتان: الأولى: أن في قلبه الحمية التي أثارها الصراع بين المسيحية ودار الإسلام، والثانية: أنه يحمل في صميم قلبه ما تحمله قلوب خاصة الأوربيين وعامتهم، وملوكهم وسوقتهم، من الأحلام البهيجة والأشواق الملتهبة إلى حيازة كل ما في دار الإسلام من كنوز العلم والثروة والرفاهية والحضارة.

كتب المستشرقون لجماهيرهم آلافًا من المقالات، تناولت كل ما يخص أمم دار الإسلام، لكن لهدف واحد: هو تصوير الثقافة العربية الإسلامية وحضارة العرب والمسلمين، بصورة مقنعة للقارئ الأوربي أنَّ العرب والمسلمين قومٌ جهال جياع، جاءهم رجل ادّعى أنه نبيٌّ مرسَل، ولفّق لهم دينًا من اليهودية والنصرانية فصدّقوه بجهلهم واتبعوه، ولم يلبث هؤلاء الجياع أن عاثوا في الأرض يفتحونها بسيوفهم حتى كان ما كان، وأن من لحق بهم من الموالي هم الذين جعلوا لهذه الحضارة الإسلامية معنى لم يكن لها ولا يكون لولاهم.

أكثر ما كتبه المستشرقون لبني قومهم، سواء كانوا من العامة الذين كتبوا لهم لتبشيع صورة الإسلام وأهله في عيونهم، ووصم نبيِّه ﷺ بالنقائص؛ حتى لا يدخلوا في دين الإسلام دخلت الكثير من الأمم الأخرى، أو كانوا يكتبون لخاصتهم من الساسة؛ ليطلعوهم على ما عند المسلمين من العلوم والكنوز والذخائر من أجل السطو على هذه الكنوز في معركة الاستعمار، أو إلى علمائهم؛ ليبينوا لهم كيف يواجهون المسلمين في معركة شديدة الخطورة، لا تزال ممتدة إلى يومنا هذا، ألا وهي معركة التبشير.

بيَّن المؤلف أن ما يفعله المستشرقون لا يمتُّ للمنهج بصلة؛ وذلك لأن لغتهم مباينة كل المباينة

للغتنا، وكذلك ثقافتهم مختلفة عن ثقافتنا، ودينهم مغاير لديننا، وهذه كلها أدوات ما قبل المنهج، ثم إنَّ داء المستشرقين العضال الذي لا يستطيع أكثرهم الشفاء منه؛ وهو داءُ الأهواء، فأكثرهم متبع لهواه.

الثقافة: لفظ جامع يقصد به الدلالة على شيئين أحدهما مبني على الآخر؛ الأول: أصول ثابتة مكتسبة تنغرس في نفس الإنسان منذ مولده ونشأته حتى يشارف حد الإدراك البين، والثاني: فروع مكتسبة منبثقة عن هذه الأصول. تنبثق حين يخرج الناشئ من إسار التسخير إلى طلاقة التفكير.

الإيمان والعمل والانتماء أركان الثقافة التي لا يكون لها وجود ظاهر محقق إلا بها، وشرط الثقافة بأركانه الثلاثة ممتنع على كل مستشرق، فكيف يكون ما كتبه المستشرقون عملًا علميًا أو بحثًا منهجيًا؟!.

ينتهي المؤلف في هذا المحور بالإشارة لمفهوم (عالمية الثقافة)، ليتوصل إلى أنه باطلٌ كلّ البطلان أن يكون في هذه الدنيا -على ما هي عليه- ثقافة يمكن أن تكون (ثقافةً عالميّة) أي: واحدة يشترك فيها البشر جميعًا ويمتزجون على اختلاف لغتهم ومِللهم ونحلهم وأجناسهم وأوطانهم، فهذا تدليسٌ كبيرٌ، وإنما يراد بشيوع هذه المقولة بين الناس والأمم هدفٌ آخرُ يتعلق بفرض سيطرة أمةٍ غالبةٍ على أممٍ مغلوبة، لتبقى تبعًا لها، فالثقافات متعددة ومتميزة، ولكل ثقافةٍ أسلوبٌ في التفكير والنظر والاستدلال منتزعٌ من الدين الذي تدين به لا محالة، الثقافات المتباينة تتحاور وتتناظر وتتناقش، لكن لا تتداخل تداخلًا يُفضي إلى الامتزاج البتّة، ولا يأخذُ بعضها عن بعض شيئًا، إلا بعد عرضه على أسلوبها في التفكير والنظر والاستدلال، فإن استجاب للأسلوب أخذته وعدلته وخلصته من الشوائب، وإن استعصى نبذتْهُ وطرحتْه.

المحور الثالث: نهضة ديار الإسلام وكيف أبيدت؟

- **نهضة ديار الإسلام، والخمسة الكبار:**

سقطت الأندلس بعد أربعين سنة من فتح القسطنطينية ٨٩٧ هـ، ثم فُقدت دار الخلافة في القسطنطينية بعد مرور مائتي عام على فتحها، فأيقظت هذه الحادثة بعض علماء المسلمين الذين قاموا لإيقاظ الجماهير المستغرقة، كان على رأسهم خمسة ممن حملوا مشعل التغيير:

» **أولهم:** عبد القادر بن عمر البغدادي، كان في مصر ما بين (١٠٣٠-١٠٩٣ هـ)، الذي وضع «خزانة الأدب» لاستعادة القدرة على تذوق اللغة والشعر والأدب وعلوم العربية.

» **ثانيهم:** الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ظهر في جزيرة العرب ما بين (١١١٥-١٢٠٦ هـ)، الذي هبَّ لمكافحة البدع والعقائد التي تُخالف ما كان عليه سلف الأمة من صفاء عقيدة التوحيد، ولم يقنع بتأليف الكتب بل نزل إلى عامة الناس في بلاد جزيرة العرب وأحدث رجة في قلب دار الإسلام.

» **وثالثهم:** حسن بن إبراهيم الجبرتي (الكبير) العقيلي، ظهر في مصر ما بين (١١١٠-١١٨٨ هـ)، اهتم بالعلوم المستغلقة على أهل زمانه، فجمع كتبها من كل مكان، وحرص على لقاء من يعلم سر ألفاظها ورموزها، وقضى في ذلك عشر سنوات، حتى ملك ناصية الرموز في الهندسة والكيمياء والفلك والصنائع الحضارية.

» **ورابعهم:** محمد بن عبد الرزاق الحسيني المرتضى الزَّبيدي، في الهند ومصر ما بين (١١٤٥-١٢٠٥ هـ) وهو صاحب «تاج العروس»، وهو الذي هبَّ يبعث التراث اللغوي والديني وعلوم العربية وعلوم الإسلام.

» **وخامسهم:** محمد بن علي الخولاني الشوكاني الزيدي، ظهر في اليمن ما بين (١١٧٣-١٢٥٠ هـ)، وقد هبَّ لإحياء عقيدة السلف، ومنع التقليد في الدين، وحطم الفرقة والتنابذ الذي أدى إليه اختلاف الفرق بالعصبية.

وقد دوَّت أسماء هؤلاء الخمسة في أرجاء ديار الإسلام، فكان ظهورهم بداية تهديد للقوة الجديدة التي ظهرت في أوروبة، وأصبحت هذه اليقظة في ديار الإسلام تُخَوفهم، فعملت على محاصرتها وسعت جاهدة لوأدها.

- **الحملة الفرنسية وخطتها في وأد اليقظة المصرية وسرقة التراث:**

وقيض الله لفرنسا قائدًا صار اسمه مثيرًا للرعب وبأنه القائد الذي لا يُقهر وهو «نابليون»، وفي ١٧ من المحرم سنة ١٢١٣ هـ الموافق لأول يوليو من عام ١٧٩٨م هوى نابليون على مهد

اليقظة في الديار المصرية، حيث وضع خطة محكمة تضمنت الخطوات الآتية:

- **أولًا:** إقناع المشايخ الكبار بأن هدف الحملة الفرنسية هو محاربة المماليك وظلمهم وجورهم الذي تعرض له المصريون والرعايا الفرنسيون.
- **ثانيًا:** إثارة الأقباط ضد المسلمين، وأن الحملة الفرنسية جاءت لإعلاء راية المسيحية؛ وإن لم ينجح هذا التدبير تمامًا.
- **ثالثًا:** محاولة تدجين العلماء، وقد نجح مع مجموعة منهم، فخدعهم بحسن استقباله لهم وتوقيرهم.
- **رابعًا:** إفقار الشعب بالاستيلاء على ثرواته من خلال الضرائب والإتاوات بالإضافة إلى التدمير والتخريب المتعمد.
- **خامسًا:** سرقة الثروة الفكرية للبلاد بالسطو على ذخائر المخطوطات، وما تزال خزائن كتبهم تشهد على ذلك.

نزل نابليون الإسكندرية ثم زحف إلى القاهرة، مصطحبًا معه عشرات من المستشرقين، وطائفة من العلماء في كل فن وعلم، فبدأ باستمالة رجال الأزهر، فلما رأى امتناعهم أطلق جنوده ليستبيحوا كل شيء ويدنسوا الأزهر، فلما أحس بغليان الشارع رجع إلى فرنسا وعيَّن على الحملة «كليبر» الذي ضرب القاهرة بالمدافع، حتى منّ الله بسليمان الحلبي فقتل «كليبر» سنة ١٢١٥ هـ، ثم جاء على الحملة الكذاب المنافق «مينو» الذي أعلن إسلامه لتسكين المسلمين، وتزوج من إحدى بنات مدينة رشيد، وبقي في إمارته يُنْزل بالناس المصائب والبلايا حتى إجلاء الحملة من مصر في يوم الاثنين ٢١ ربيع الآخر سنة ١٢١٦هـ الموافق ٣١ أغسطس ١٨٠١م، لكنها أخذت ما جاءت إليه من كل نفيس من الكتب والعلوم.

ابتدأ المشروع الاستشراقي الأعظم ببعث ثلة من شباب مصر ليتعلموا «ويتفرنسوا» أيضًا في باريس، وليعودوا فيكون منهم حزب كما يشتهي «نابليون» في وصيته لخليفته «كليبر»، والحقيقة أن فكرة البعثات العلمية لم تكن نابعة من عقل هذا الجاهل، بل كانت نابعة من عقولٍ تخطط وتدبر لأهداف بعيدة المدى

- **«محمد علي» ودوره في محاربة النهضة:**

وبعد الجلاء الفرنسي تولى «محمد علي» وكان رجلًا ذكيًا مكارًا قد خالط المشايخ، وأظهر لهم من النصح وسلامة الصدر ما خدعهم به، فولوه أمر مصر، كان بائع دخان أول أمره، ولم يكن يقرأ

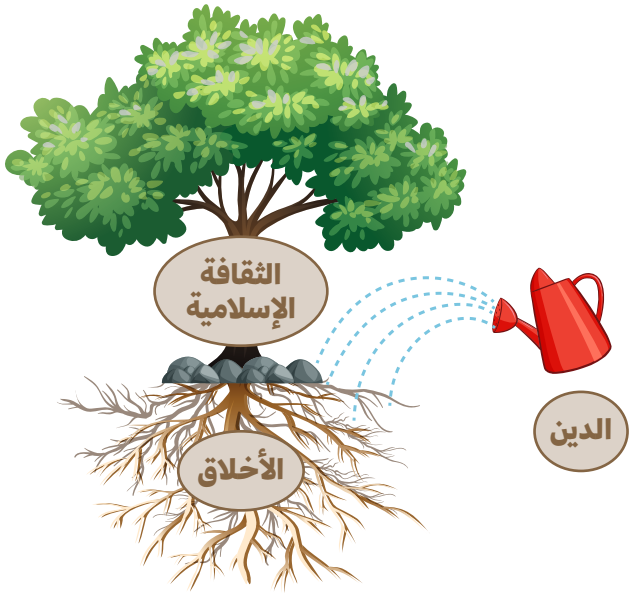

يرى المؤلف أن الأصل الأخلاقي المستمدّ من الدين هو الذي حفظ للثقافة الإسلامية ترابطها

ولا يكتب، قدم مصر مع ثلاثمئة جندي بعثت بهم الدولة العثمانية أواخر أيام الحملة الفرنسية.

كانت قوى الاستعمار ترقبه من أول ساعة حطت فيها قدماه أرض مصر، فما إن تولى حتى أحاطت به قناصل الدول المسيحية (الاستعمارية) وبدأت عملية السيطرة عليه حتى أوغروا صدره على المشايخ فغدر بهم وتغلب على أمر مصر، فهيمنت قناصل الصليبيين بهيمنته! فماذا فعل؟

- **أثر البعثات التعليمية والدور التغريبي لرفاعة الطهطاوي:**

ابتدأ المشروع الاستشراقي الأعظم ببعث ثلة من شباب مصر ليتعلموا «ويتفرنسوا» أيضًا في باريس، وليعودوا فيكون منهم حزب كما يشتهي «نابليون» في وصيته لخليفته «كليبر»، والحقيقة أن فكرة البعثات العلمية لم تكن نابعة من عقل هذا الجاهل، بل كانت نابعة من عقولٍ تخطط وتدبر لأهداف بعيدة المدى.

وُئدت اليقظة في قلب العالم الإسلامي وأقاموا على أنقاضها بناءً جديدًا راسخ الأساس أقامه الاستشراق ليضمن به الغلبة والسيطرة وإخضاع دار الإسلام لأهدافه وغاياته.

هلك «محمد علي» وبقي أولاده من بعده في قبضة القناصل والاستشراق، وعادت البعثات بقلب أوروبي وقالب عربي.

كان على رأس أول بعثة رجلٌ خرج مع البعثة إمامًا يصلي بهم الصلوات الخمس، ويراقب أفراد البعثة وهو «رفاعة الطهطاوي» ابن الثالثة والعشرين من عمره، الصعيدي المنشأ، الأزهري الدراسة، الذي لم ترَ عينه سوى الريف وضواحي الأزهر القديمة المتهالكة.

فرجع بعد ست سنوات من فتنته بباريس ليُخرج مصر من الظلمات إلى النور ومن التخلف إلى التحضر، وأنشأ مدرسة الألسن التي كانت تدرس الآداب الغربية والتاريخ المزور، لكي تنافس من طرف خفي الأزهر الذي أسقط هيبة مشايخه «محمد علي» مؤسس مصر الحديثة.

- **الاحتلال الانكليزي وتدمير التعليم على يد «دنلوب»:**

ومضت الأيام حتى جاء الاحتلال الإنجليزي في ١٢٩٩ هـ الموافق ١٥ سبتمبر ١٨٨٢م ووكل أمر التعليم في مصر إلى قسيس مُبشر خبيث هو «دنلوب» ليؤسس أصول الاحتلال الإنجليزي في مصر ويُمَكن لثقافته، حيث شطر التعليم في البلاد إلى شطر ديني في الأزهر ودنيوي في المدارس، وما تبع ذلك من تفريغ طلبة المدارس من ماضيهم وبعث الانتماء إلى الفرعونية البائدة، لكي يزاحم بقايا ذلك الماضي المتدفق الحي.

المحور الرابع: قصة التفريغ الثقافي - فساد الحياة الأدبية وشهادتان للتاريخ:

في نهاية الرسالة فيما أطلق عليه المؤلف اسم: «ذيل الرسالة» بيَّن قصة فساد الحياة الأدبية، وذكر أنه عازم على أن يورد في هذا الذيل شهادتين هما:

شهادته الشخصية حيث قال: «شهادتي أنا من موقعي بين أفراد جيلي الذي أنتمي إليه، وهو جيل المدارس المفرغ من كل أصول ثقافة أمته، وهو الجيل الذي تَلَقَّى صدمة الدهور الأولى، حيث نشأ في دوامة من التحول الاجتماعي والثقافي والسياسي».

والشهادة الثانية وهي: «شهادة الدكتور طه حسين من موقع (الأستاذية) لهذا الجيل».

وبيَّن محمود شاكر أن في قراءة هاتين الشهادتين منجاة من الدخول في غمار أحلام (النهضة) و(التجديد) و(الأصالة المعاصرة) و(الثقافة العالمية).

فتحت عنوان «قصة التفريغ الثقافي» أوضح نقطة في غاية الأهمية عن أثر الاحتلال الانجليزي لمصر وجعل التعليم في قبضة المبشر الخبيث «دنلوب»، وما ترتب عليه من تفريغ الأجيال الناشئة من ماضيها المتدفق في دمائها مرتبطًا بالعربية والإسلام والذي سوف يفرغ الأجيال تفريغًا كاملاً من ماضيهم كلِّهِ ثم يملأ هذا الفراغَ بعلوم وآداب وفنون لا علاقة لها بماضيهم، وإنما هي علوم الغُزَاةِ، وفنون الغُزَاةِ، وآداب الغُزَاةِ، وتاريخ الغُزَاةِ، ولغات الغُزَاةِ.

> **«لقد كنت أعيش في وقت فُرِّغَ شبابه الدارسون من ماضيهم وتركوا تاريخهم وراء ظهورهم، وذلك لأن الغزاة الذين هجموا علينا فَرَّغوا النشء من كل موروث، ووضعوا في مكانه أشياء تافهة لا قيمة حقة لها، فهجر النشء الجديد كل قديم مما تركه الآباء، واتجهوا باسم التجديد إلى ما جاء لهم به أولئك الذين سيطروا على عقولهم»**
>
> الأستاذ محمود شاكر رحمه الله

وفي شهادة الأستاذ محمود شاكر يذكر أنه قد مرت عليه الأيام والليالي والسنون التي كتب خلالها كتابه عن (المتنبي) وهَمُّهُ مصروف إلى قضية الشعر الجاهلي، وطلب اليقين لنفسه إلى أن انكشفت عنه غشاوة من العمى، يقول: ووجدت الصورة الحقيقية التي تفصل العالم الذي أنا فيه –وقتذاك– والعالم الذي عاش فيه مَن قبلي.

لقد كنت أعيش في وقت فُرِّغَ شبابه الدارسون من ماضيهم وتركوا تاريخهم وراء ظهورهم، وذلك لأن الغزاة الذين هجموا علينا فَرَّغوا النشء من كل موروث، ووضعوا في مكانه أشياء تافهة لا قيمة حقة لها، فهجر النشء الجديد كل قديم مما تركه الآباء، واتجهوا باسم التجديد إلى ما جاء لهم به أولئك الذين سيطروا على عقولهم.

ثم ضرب مثلاً بحالة لها شهرة وهو موقف طه حسين من الشعر الجاهلي، وما جاء في كتابه من تشكيك، على أن طه حسين عاد بعد تسع سنوات فكتب عدة مقالات كانت تتضمن رجوعًا عما قاله عن الشعر الجاهلي سنة ١٩٢٦م، ولخص ما كتبه طه حسين باعتباره شهادة لابد من إعلانها، وقد جاء فيها:

«والذين يظنون أن الحضارة الجديدة حملت إلى عقولنا خيرًا خالصًا يخطئون، فقد حملت الحضارة الحديثة إلى عقولنا شرًا غير قليل.. فكانت الحضارة الحديثة مصدر جمود وجهل، كما كان التعصب للقديم مصدر جمود وجهل أيضًا». وإن هذه الأسطر لتدل على باقي فحوى الشهادة التي حرص المؤلف على أن يذكرها لنا في نهاية رسالته.

ختـامًا:

بعد هذا التطواف الطويل نلحظ أن شيخ العربية قد كشف المؤامرة الهادفة لتدمير ثقافتنا وتراثنا، وبيَّن بجلاء الدور المظلم الذي قام به الاستشراق ودعاته، موضِّحًا أن ثقافة كل أمة هي جسدها الذي يقوم به كيانها وتعرف به من بين أقرانها، ورأس كل ثقافة هو الدين بمعناه العام، والذي هو فطرة الإنسان، فالثقافة كلٌّ لا يتجزأ، وبناء لا يتبعّض.

وذكَّرَ أنَّ الأصل الأخلاقي هو العامل الحاسم الذي يُمَكِّن لثقافة الأمة بمعناها الشامل، وأن أسلافنا منحوا هذا الأصل عناية فائقة شاملة، لم يكن لها شبيه عند أمة سبقتهم، ولم يُتَحْ لأمة لحقتهم أن يكون عندها شبيه أو مقارب، وهذه العناية بالأصل الأخلاقي هي التي حفظت على الثقافة الإسلامية ترابطها مدة أربعة عشر قرنًا.

تعلمت من أبي

أ.حسان رضا حجازي

- تعلمت من أبي: أن التربية على الأخلاق والأدب هي أساس التربية، وأن المرء يزداد قيمةً بالكرم والعطاء والتضحية.
- تعلمت من أبي: ألا تكون الدنيا أكبر همي ولا مبلغ علمي.
- تعلمت من أبي: أن الأخ تظل مكانته عالية حتى وإن تعثر وأخطأ، وأن أسارع في الإحسان إليه حتى وإن هو أبطأ عليّ.
- تعلمت من أبي: أن أكون بسيطًا طيب القلب، وأن أنشر بين الناس الرحمة والحب.
- تعلمت من أبي: أن يكون عملي لله ومن أجل إرضاء الله، حتى يبقى صالح الأثر، على طول الدهر.
- لا تتسع كلماتي لذكر ما تعلمته من أبي ... ولكل منا أبٌ يعلمه أو يهديه شيئًا في الحياة، أما أنا فـ (الحياة أهدتني أبي).

هل اختلفت مقاييس معركة الحق والباطل؟

أ. رياض عطا الله

معركة اليرموك كانت بـ ٣٩ ألف مسلم ضد ٢٠٠ ألف من الروم، والقادسية كانت بـ ٣٢ ألف مسلم ضد ٢٤٠ من الفرس، ووادي برباط كانت بـ ١٢ ألف مسلم ضد ١٠٠ ألف من القوط النصارى، والزلّاقة كانت بـ ٣٠ ألف مسلم ضد ٦٠ ألف من النصارى.

لو تحدثنا بالمنطق المجرَّد فليس هناك ما يبرر نصر هذه القلة على أعداد تبلغ ضعفها على الأقل، لا سيما أن تلك الدول كانت معروفة بخبرتها العسكرية، وتفوقها المادي، مما يجعل النتيجة محسومة مسبقًا بكثرة العدد والعدّة، فجاء الإسلام وكسر القاعدة ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، فكان صدق النية يأتي بالغاية.

لكن لم تكن تلك الجيوش إلا جيوشًا مؤمنة متوكلة على الله آخذةً بالأسباب، مجتهدةً بالدعاء والعبادة ليقينهم أن النصر من عند الله.

ونحن لن ننتصر إذا لم نكن بذلك الإيمان والتوكل الذي يرافقه الأخذ بالأسباب.

مما أعجبني في التربية

أ.ميمونة عماد الدين خيتي

قال الأستاذ محمد قطب رحمه الله في كتاب منهج التربية الإسلامية:

«تناول القرآنُ كلَّ المخاوف البشرية الزائفة واحدًا واحدًا فينفضها عن النفس، ويرفع عنها إصرها، ليطلقها تواجه الحياة قوية عزيزة متمكنة، متطلعة، مطمئنة إلى قدر الله.

إن قوى الأرض كلها لا تخيف -أو لا ينبغي أن تخيف- لأنها قوى مسخرة. لا تستمد من نفسها، ولا تملك لنفسها ضرًا ولا نفعًا. والقوة التي ينبغي أن تخاف حقًا هي القوة التي بيدها كل شيء، هي المانحة حقًا والمانعة حقًا، وإذن فخوفها هو الخوف الواجب، وخشيتها هي السبيل.

الخوف ينبغي أن يكون من الله، ومما يخوَّف به الله.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦].

﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤]».

تزبَّبَ قبل أن يتحصرم!

أ.أنس جمعة حشيشو

تقف على أطلال المسميات فتجد عجائب الدنيا وما أبدعت يد الزمان من (باحث اجتماعي - باحث في الشأن السوري - محلل سياسي - باحث إسلامي - ناشط إعلامي - مختص تربوي - مستشار قيادي ...) والقائمة تطول وتستمر التخصصات، ولا تدري ما آلية التوصيف ولا كيفية التصاق الموصوف بالصفة!!

يعزُّ على النفس رؤية مَن انساق وراء سهولة التوصيف قبل جهد التخصُّص، واستعذب الألقاب دون أي دراسة أكاديمية لألف باء ما وَسمَ نفسه به!

ودون مبالغة هناك من الخبرات المتراكمة ما يشكِّل عند (البعض) جودة في التخصص... لكن لا يعفي عن تتويجه وتحصينه بسور التعلم الأكاديمي.

لعلها إحدى مشكلاتنا عندما أكثر البعض من العطاء في وقت يفترض أنه وقت الاكتساب..

دمتم للعلم طالبين؛ فالوطن أمانة، ومسؤوليته حِملٌ عظيم، يحتاج الجميعَ من شتى الاختصاصات، والفَطِنُ مَن استمر في الكسب والتحصيل مع ديمومة العطاء.

فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ

د.خير الله طالب

ترك قومه مغاضبًا مترقبًا هلاكهم لتأخر إيمانهم، وركب السفينة المشحونة التي تخففت من حمولتها بإلقائه، فالتقمه الحوت، ثم نجاه الله إلى أرض خالية، وعافاه بشجرة يقطين، وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا ونجوا.

كانت نجاته ونجاة قومه فريدة -فيما نعلم- بعد تحقق الهلاك وإطباق المصيبة، ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا﴾ [يونس: ٩٨].

فما أحوجنا اليوم إلى تدبر هذه القصة، وتمعّن أسباب النجاة فيها.

أولًا: مقام النبوة لم يمنع من التأديب الإلهي:

نقرأ في كلمتي ﴿أَبَقَ﴾، و﴿مُلِيمٌ﴾ أنه عليه السلام فعل ما يلام عليه، وهو مغاضبته لربه عز وجل، فتعرض للهلاك في بطن الحوت لولا توبته وتسبيحه.

والميزان عند الله دقيق بمثقال الذرة، فكيف نأمن من مكر الله، ونعيش الطمأنينة والدعة، متكئين على أرائكنا ونحن غارقون في ذنوبنا؟! نستعجل النصر، متلاومين بنفسٍ غير لوامة لصاحبها إلا مَن رحم ربي. ولن تجدَ أخطر على دين امرئ مثل ظنه أن ما يقع من الهزيمة إنما هو بسبب غيره ناسيًا نفسه. ولا ذنب كنسيان الذنب والجهل به.

ثانيًا: قدرة الله غالبة:

فأما قوم يونس ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مع أن الإيمان وقت نزول العذاب لا ينفع صاحبَه عادةً. وأما يونس فقد لطف الله به في بطن الحوت، وأعاده للحياة حيث لا بصيص للأمل فيها. قال في التحرير والتنوير: «وإنجاؤه هو بتقدير وتكوين في مزاج الحوت حتى خرج الحوت إلى قرب الشاطئ فتقاياه»[1]. فسبحانه هو القادر لا يعجزه شيء.

فما بال مَن يطلق عبارات اليأس والإحباط والاستبطاء، ينتظرون النصر من الله، تاركين بذل أسبابه غافلين عن سننه! والله تعالى لم يأذن بشيء من اليأس؛ لأنه جهل بالرب وسوء ظن به سبحانه.

ثالثًا: يزول البلاء بإزالة موجب العقوبة:

عقارب الزمان لا تعود إلى الوراء، ولذلك فتح الله الكريم باب التوبة والاعتراف والندم الصادق والعزيمة الأكيدة التي نجَّى بها قوم يونس عليه السلام، والتي نجَى بها هو ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

«وأما نداؤه ربَّه فذلك توبةٌ صدرت منه عن تقصيره أو عجلته أو خطأ اجتهاده، ولذلك قال: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ مبالغة في اعترافه بظلم نفسه، فأسند إليه فعل الكون الدال على رسوخ الوصف، وجعل الخبر أنه واحد من فريق الظالمين وهو أدل على أرسخية الوصف». إنَّه تمام الإخبات لله بلا استثناء.

«وتقديمُه الاعترافَ بالتوحيد مع التسبيح كنّى به عن انفراد الله تعالى بالتدبير وقدرته على كل شيء»[2].

وهذه الدعوة (لم يَدعُ بها رجلٌ مُسلم في شيءٍ قَط إلا استجابَ الله له)[3].

رابعًا: النَّجاة موقوفة على التغيير:

والتغيير هو توبة كلٍّ في نفسه. وأول التوبة الندم، وهو كما عرفه الغزالي: «نار في القلب تلتهب، وصدع في الكبد لا ينشعب»، ودليل صحته: «ابكِ على خطيئتك»، فقحط العين من قسوة القلب. وإن من الدمع ما كان لأجل الدنيا وحسرة النفس، فما أبعد ذلك عن الصدق.

خطيرٌ أن نتلقى التوبة موعظة باكية مؤقتة تريحنا من ألم المعصية المؤقت، لا منهجيةَ تغيير شاملٍ تستدعي ثورة على غفلتنا وقعودنا عن رسالتنا الدعوية الحضارية. وكم يجب أن نقلق لزخم الكلام حين يكون بعيدًا عن حقائق التغيير النفسي والاجتماعي الفردي والجماعي.

التوبة منهجية تغيير، تجسد الإيمان العملي في حياة نابضة ناهضة راشدة سعيدة. ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ١-٣].

ألا ما أبعد النَّجاة، وما أقربها.

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٣٣/١٧).
(٢) المرجع السابق (١٣٢/١٧).
(٣) أخرجه أحمد (١٤٦٢) والترمذي (٣٥٠٥) والنسائي في الكبرى (١٠٤١٧) والحاكم (١٨٦٢) وصححه.

رواء

ترحب مجلة رواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

كما ترحب المجلة بخواطركم القصيرة ضمن زاوية (بأقلام القراء)

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

صدر من مجلة رواء

rawaamagazine.com

rawaamagazine